الفصل الخامس:
غزوة الأحزاب [الخندق]

غزوة الأحزاب [الخندق]:

كانت تحركات المسلمين المتواصلة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، وتحديهم المستمر لقريش، وتهديدهم لطرق تجارتها، وكذلك إجلاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بني قينقاع وبني النضير عن المدينة، قد هيأت الظروف لتحالف المشركين مع يهود بني قريظة بهدف اجتثاث المسلمين من قاعدتهم المدينة. كما أن الحسد والحقد قد تمكنا من قلوب يهود بني النضير بعد إجلاءهم من المدينة، مما جعلهم يضمرون العداء ويتحينون الفرص للتشفي ممن طردهم - وما طردهم إلا بسبب ما ارتكبوه ضد المسلمين - أو التحريش ضده وكانوا لا يستطيعون تنفيذ الأول وهو التشفي وحده، وهذا طبعهم الذي أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم في أكثر من آية منها على سبيل المثال قولهم لنبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل بجلاء على جبنهم، وخبث نفوسهم، وعلى عدم طاعتهم لنبيهم بعكس أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث كان حسناً ما أجاب به الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يوم بدر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين استشارهم في قتال كفار قريش حيث كان آخر ما قالوه "فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصُبُر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله"[1].

وعندما لم يستطع يهود خيبر - وخاصة بني النضير[2] - مجابهة المسلمين لجؤوا إلى الأسلوب الثاني وهو أسلوب المكر والتحريش فقد روى ابن إسحاق قال: كان من حديث الخندق[3] أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٨ - ٣٩، والسيرة النبوية، ٢/ ٦١٥، صحيح البخاري مع الفتح، ٧/ ٢٨٧ كتاب المغازي.

(٢) ذلك لأنهم خسروا الكثير من مناطق نفوذهم وسلطانهم فهم موتورون، وأكثر حقداً وتحمساً من غيرهم.

(٣) الخندق: حفير حول أسوار المدن معرب (كندة) وهي الحفرة، وخندق حفرة. ترتيب القاموس، ٢/ ١١٦.

وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: "إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله" فقالت لهم قريش: "يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه؟" قالوا بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٥٠] (١).

قال ابن إسحاق: "فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان(٢) فدعوهم إلى حرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنهم يكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، واجتمعوا معهم فيه(٣).

لذلك قال أبو الحسن الندوي: وتمت الاتفاقية العسكرية والتي كان قريش وغطفان واليهود من أهم أعضائها واتفقوا على شروط من أهمها:

١ - أن تشارك غطفان في جيش الاتحاد بأكبر عدد ممكن.

٢ - أن يدفع اليهود لقبائل غطفان كل تمر خيبر لسنة كاملة.

---

(١) انظر ذلك في السيرة النبوية، ٢/ ٢١٤ - ٢١٥، والبداية والنهاية، ٤/ ٩٤، وتاريخ الطبري، ٢/ ٥٦٥، والطبقات الكبرى، ٢/ ٦٥، وعيون الأثر، ٢/ ٥٥.

(٢) غطفان بن سعد بطن عظيم متسع كثير الشعوب والأفخاذ من قيس عيلان من العدنانية، وهم بنو غطفان بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان كانت منازلهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبل طيء ثم تفرقوا في الفتوحات الإسلامية، واستولت عليها قبائل طيء، وتنقسم إلى ثلاثة أفخاذ عظيمة هي: أ - أشجع بن ريث بن غطفان .ب - عبس . ج - ذبيان.
وقد حاربوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة الخندق، وجاءوا من بلادهم لذلك وكانوا أكثر الجموع في الأحزاب ثم ارتدوا بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحاربهم أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وبعث إليهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - فقتل منهم كثيراً وتشتت شملهم.
معجم قبائل العرب، ٣/ ٨٨٨، والمعارف لابن قتيبة، ص ٨٢.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ٣/ ٢١٤، وسائر كتب المغازي.

وأسندت قيادة الجيش لأبي سفيان بن حرب[1] .

تاريخ الغزوة:

اختلف العلماء في تحديد زمن هذه الغزوة وانحصرت أقوالهم فيها فيما بين السنة الرابعة والخامسة للهجرة النبوية الشريفة ، غير أن جمهور أهل السير والمغازي اتفقوا على غزوة الأحزاب كانت في شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة[2]

الدوافع والأسباب التي دعت إلى تكتل الأحزاب:

إن الحقد الذي تمكن في قلوب اليهود على البشرية عامة وعلى المؤمنين خاصة قديم يرافق هذا الحقد عناد وصلف وكبرياء . ذلك الحقد الذي أعمى قلوبهم وأحرقها وشتت شملهم في الدنيا حيث نفاهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة وذلك بقوة الله التي تسانده حيث أخبر تعالى عن ذلك فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢] .

فلما نفدت حيل اليهود وأصبح مكرهم مكشوفاً وعجزهم واضحاً لجؤوا إلى كفار قريش - ليدللوا بذلك على جبنهم وذلهم - لجأوا محرضين كفار قريش ليشنوا حرباً عامة على المسلمين في المدينة: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] . وقد أعطوا العهود والمواثيق لكفار قريش أنهم سيكونون معهم محاولين بذلك تغطية الذلة والجبن الذي هو من أخلاقهم دائماً وأبداً .

وتكون الوفد من بني النضير ومن بني وائل ، وحيكت المؤامرة في خيبر وانطلق بعدها الوفد يضم: سلام بن أبي الحقيق النضري - أبا رافع - وحيي بن أخطب النضري وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري .

ومن بني وائل هوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عامر الوائلي ، ووحوح بن عامر الوائلي كل هؤلاء توجهوا إلى مكة يرأسهم حيي بن أخطب الذي أعمى قلبه الحقد والحسد ، وكان أهل مكة ينتظرون بفارغ الصبر من يشد من عزمهم

(١) السيرة النبوية للندوي ، ص ١٩٨ .
(٢) البداية والنهاية ، ٤/ ٩٣ ، صحيح البخاري ، ٥/ ٤٤ .

ويساعدهم على حرب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وسار الوفد حتى وصل مكة،فسألهم أهلها: من أهدى أنحن أم محمد؟ وبينوا لهم صفة الطرفين قريش، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت صفة محمد التي عيب بها هي: أنه كان يعيب آلهتهم وينفرهم من عبادتها، ويدعوهم إلى عبادة الواحد القهار. فكان رد أولئك اليهود في صالح الكفار ولكن كان الفشل حليفهم حيث رد عليهم القرآن وذلك بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٥١].

ثم ما لبثوا أن فاتحوهم في الموضوع الذي جاءوا من أجله فسر كفار قريش بذلك أكثر وأكثر ونشطوا له فاجتمعوا لذلك واتعدوا له.

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قيل إنهم أعطوهم تمر خيبر سنة كاملة مقابل ذلك وأخبروهم أنهم سيكونون معهم ضده. وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا فيه وأجابوهم.

وقد تقدم ذكر ذلك في حديث ابن إسحاق المتقدم[1].

مما سبق يظهر بوضوح أن هذا الوفد قد تكون في خيبر فعلاً وكان اليهود هم المتزعمين لذلك الموقف المخزي، وهو موقف لا يستغرب منهم فتاريخهم مليء بالكيد والدسائس لغيرهم عموماً ولأهل الإسلام خصوصاً.

دور المنافقين في هذه الغزوة:

وفي هذه الغزوة ظهر النفاق جليا حيث أظهر كثير من المنافقين العداء للإسلام مما زاد في تفاقم الأمر وخطورته.

وقد حكى لنا القرآن ذلك الخطر وتلك الشدة فقال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠].

فقد روى الطبراني عن ابن عباس قال: "احتفر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخندق وأصحابه قد شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع فلما رأى ذلك رسول

(١) السيرة النبوية، ٢/ ٢١٤.

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**هل دللتم على رجل يطعمنا أكلة؟**» قال رجل: نعم. قال: إمالا[1] فتقدم فدلنا عليه. فانطلقوا إلى رجل فإذا هو في الخندق يعالج نصيبه منه فأرسلت امرأته أن جيء فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أتانا فجاء الرجل يسعى فقال بأبي وأمي وله معزة[2]. ومعها جديها فوثب إليها فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الجدي[3] من روائنا فذبح الجدي وعمدت امرأته إلى طحينة لها فعجنتها وخبزت وأدركت[4] وثردت فقربتها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه فوضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصبعه فيها فقال: «**بسم الله اللهم بارك فيها اطعموا**».

فأكلوا منها حتى صدروا[5] ولم يأكلوا إلا ثلثها وبقي ثلثاها فسرح أولئك العشرة الذين كانوا معه أن اذهبوا وسرحوا إلينا بعدتكم وجاء أولئك العشرة مكانهم فأكلوا منها حتى شبعوا ثم قام ودعا لربة البيت وسمت[6] عليها وعلى أهل بيتها ثم مشوا إلى الخندق. فقال: «**اذهبوا بنا إلى سلمان**» وإذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها" فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «**دعوني فأكون أول من ضربها فقال: بسم الله فضربها فوقعت فلقة ثلثها فقال: الله أكبر قصور الروم ورب الكعبة ثم ضرب أخرى فوقعت فلقة قال: الله أكبر قصور فارس ورب الكعبة. فقال عندها المنافقون نحن بخندق وهو يعدنا قصور فارس والروم**»[7].

عن الحسن في قوله تعالى: ﴿... **وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا**﴾ [الأحزاب: ١٠]. قال

---

(١) قال في حاشية الصبان شارحاً لهذه الكلمة: "حذفت كان مع معموليها بعد أن في قولهم - افعل هذا إمالا". أي إن كنت لا تفعل غيره فما عوض عن كان، ولا نافيه للخبر ومنه قوله:

أمرعت الأرض لو أن مالا
لو أن نوقا لك أو جمالا
أو ثلة من عنم إمالا

التقدير: إن كنت لا تجد غيره. حاشية الصبان، ١/ ٢٤٥.

(٢) المعزة: هي الأنثى الماعز. مختار الصحاح ٤٥٧.

(٣) الجدي: هو ولد المعزة.

(٤) أدركت: أي نضجت طحينتها.

(٥) صدروا أي شبعوا.

(٦) قال ابن الأثير في النهاية ٢/ ٣٩٧: في حديث الأكل سمو الله ودنّوا وسمتوا أي إذا فرغتم فادعوا بالبركة لمن طعمتم عنده والتسميت: الدعاء.

(٧) المعجم الكبير، ١١/ ٣٧٦.

ظنونا مختلفة ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون[1].

وقال ابن زيد: قال رجل يوم الأحزاب لرجل من صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يافلان أرأيت إذ يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**» فأين هذا من هذا؟ وأحدنا لا يستطيع أن يخرج ليبول من الخوف": ﴿مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾. فقال: كذبت لأخبرن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرك" قال: "فأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره فدعاه فقال: «**ما قلت؟**» قال: "كذب علي يارسول الله ما قلت شيئاً ما خرج من فمي قط. قال الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ حتى بلغ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤]. قال: فهذا قول الله: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦][2].

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن فليح قال: "فلما أشتد البلاء على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه نافق ناس كثير وتكلموا بكلام قبيح. فلما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فيه الناس من البلاء والكرب جعل يبشرهم ويقول: «**والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة وأني لارجو أن أطوف البيت العتيق آمناً وان يدفع الله عز وجل إلي مفاتيح الكعبة وليهلكن الله كسرى وقيصر ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل**». وقال رجل ممن معه لأصحابه: "ألا تعجبون من محمد يعدنا أن نطوف بالبيت العتيق وأن نقسم كنوز فارس والروم ونحن ها هنا لا يأمن أحدنا أن يذهب للغائط والله ما يعدنا إلا غروراً"[3].

وهكذا نرى من خلال هذه الآثار أن للمنافقين دوراً خطيراً في هذه الغزوة بالذات ذلك لأنهم لا يظهرون إلا في أوقات الأزمات. أما عندما ينتصر المسلمون فلا يسمع لهم صوت. والقرآن الكريم فضحهم في أكثر من موطن ولكنا أردنا أن نبين أمرهم خاصة في هذه الغزوة الفاصلة[4].

---

(١) جامع البيان، ٢١/ ١٣٢، وانظر: تفسير ابن كثير، ٣/ ٤٧٢.

(٢) تفسير الطبري، ٢١/ ١٣٣.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي، ٣/ ٤٠٢.

(٤) لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لن يغزوكم بعد عامكم هذا".

موقف المسلمين من تحركات الأحزاب:

لم تكن الإستخبارات الإسلامية غافلة عن تلك التحركات التي يقوم بها اليهود لتأليب القبائل العربية وقريش علي المسلمين ، فما أن بلغت أنباء تلك التحركات الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قام بعقد مجلسه العسكري يحضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين والأنصار وعرض عليه الموقف ، واستشارهم في كيفية مواجهة الموقف ، وتمخضت تلك المشاورة عن رأي سديد أدلى به سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث أشار بحفر الخندق لكي يحول بين العدو وبين المدينة فقال سلمان: يا رسول الله ، إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل ، خندقنا علينا ، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سليمان المسلمين [1] .

وعندما استقر الرأي - بعد المشاورة - على حفر الخندق ، ذهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه واختار للمسلمين مكانًا تتوافر فيه الحماية للجيش ، وذكر الواقدي: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركب فرسًا له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فارتاد موضعًا ينزله ، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعًا خلف ظهره ويخندق من المذاد إلى ذباب [2] إلى راتج [3] ، وقد استفاد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مناعة جبل سلع [4] في حماية ظهور الصحابة .

كان اختيار تلك المواقع موفقًا ؛ لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو والذي يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها ، أما الجوانب الأخرى فهي حصينة منيعة ، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء ، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع ، وكانت حرة واقم [5] من جهة الشرق ، وحرة الوبرة من جهة الغرب ، تقومان كحصن طبيعي ، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشرقي كفيلة بتأمين ظهر المسلمين ، وكان بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبني قريظة عهد ألا يمالؤوا عليه أحدا ، ولا يناصروا عدوًا ضده [6] .

---

(١) مغازي الواقدي ، ٢/ ٤٤٤ ، والطبقات الكبرى ، ٢/ ٦٦ ، زاد المعاد ٣/ ٢٧١ ، السيرة الحلبية ١/ ٦٣١ .

(٢) ذباب: أكمة صغيرة في المدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع .

(٣) راتج: حصن من حصون المدينة لأناس من اليهود .

(٤) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة ، انظر: معجم البلدان ، ٣/ ٢٣٦ .

(٥) هي حرة المدينة الشرقية: انظر: معجم معالم الحجاز ، ٢/ ٢٨٣ ، ٢٨٥ .

(٦) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، ص٤٤٢ .

لقد كان الخندق ذا أهمية عظمى ذلك لأن المسلمين عندما بحثوا خطة الدفاع عن المدينة كانوا يفكرون في إيجاد وسيلة فعالة يتحاشون بها الالتحام الشامل المباشر مع جيوش الأحزاب المتفوقة عدداً وعدة في معركة فاصلة ليتسنى لهم تجميدها وشل حركتها على النحو الواسع الذي تريد تلك القوة الباغية .

ولقد كان لتنفيذ هذا المشروع الدفاعي أكبر الأثر في تجميد نشاط جيوش الأحزاب وشل حركتها ثم فشل الغزو في النهاية[1] .

ولقد حفر الخندق في المنطقة الشمالية الغربية من المدينة لأن هذا المكان هو أصلح موقع يجب أن يعسكر فيه من يريد الدفاع عن المدينة لأنه الناحية الوحيدة المكشوفة التي لابد لأي غاز يريد المدينة من أن يتجه إليها ذلك لأن الجهات الأخرى محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة والأبنية المتشابكة والحواجز الطبيعية الصعبة كالجبال وغيرها والتي لا تسمح لقوات الأحزاب الكبيرة أن تقوم بإجراء أي قتال على نطاق واسع كما تريد[2] .

لقد بدأ المسلمون في حفر الخندق في وقت عصيب - ذلك لأنهم يبادرون قدم العدو . وقد وكل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكل أناس جزءاً من المكان المتفق على حفره وفي ذلك تنشيط لهم ودافع على المسابقة في إكمال ما يلزم كل طائفة علماً بأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد وضع يده معهم ليدفعهم ويرغبهم أكثر في ذلك ، فأخرج البيهقي مطولاً من طريق كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده وساق الحديث إلى أن قال: وخط رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخندق لكل عشرة أناس عشرة أذرع - وفيه - فمرت بنا صخرة بيضاء كسرت معاويلنا فأردنا أن نعدل عنها فقلنا: حتى نشاور رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأرسلنا إليه سلمان - وفيه - فضرب ضربة صدع الصخرة وبرق منها برقة وكبر المسلمون - وفيه - رأيناك تكبر فكبرنا بتكبيرك فقال: «**إن البرقة الأولى أضاءت لها قصور الشام فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم**» - وفي آخره - ففرح المسلمون واستبشروا[3] .

ولقد حفروا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بجد ونشاط وكانت المسافة طويلة وشاقة حيث كان الحفر من طرف بني حارثة - وبنو حارثة - في طرف الحرة الشرقية - إلى المذاد - من طرف بني سلمة بعد جبل بني عبيد من بني سلمة .

---

(١) محمد باشميل ، غزوة الأحزاب ، ص ١٤٧ .

(٢) محمد باشميل ، غزوة الأحزاب ، ص ١٤٩ .

(٣) فتح الباري ، ٧/ ٣٩٧ .

وكان هذا مع ما كان بهم من الجوع وبدائية الأدوات التي كانوا يستخدمونها إلا أن اعتمادهم على الله ثم على قوة إيمانهم به وبرسوله وبمشروعية الدفاع عن الإسلام وعن النفس كل ذلك جعلهم ينجزون ما بدؤوا فيه بسرعة فائقة إذا قيس بأعمال الآلات الحديثة اليوم .

ولقد عمل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده الشريفة مع المسلمين ليقوي نشاطهم وتزداد رغبتهم كما أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يبادلهم الأهازيج . لأن الشعر والتمثل به مما يزيد في النشاط .

والمسلم عليه أن يتأسى برسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحينما يرى البذخ الذي فيه بعض الناس والفقر الذي فيه آخرون - يقول - : «**اللهم إن العيش عيش الآخرة**» . لأنها كلمة ترتفع بالنفس عن الدنيا الفانية وإغراءاتها المذلة" .

هكذا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه في صراع دائم مع الدنيا وإغراءاتها ولم تجد إليهم سبيلاً بل كانوا على يقين تام بأن الآخرة أحسن وأولى: ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ**﴾ .

وكانوا يعملون هذه الأعمال المجيدة الشاقة دفاعاً عن هذا الدين الحنيف وهم في حالة صعبة حيث الجوع والبرد القارس ومع ذلك كانت عزائمهم صلبة تكسر الصخور .

ومن أيقن مثلهم بخراب الدنيا وذهابها عمل لعمارة الآخرة ونسي الآلام كلها وتخطى كل العقبات .

وعندما قرر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حفر الخندق - بعد المشاورة - أمر بنقل النساء والذراري إلى الآطم[1] الحصينة حتى لا يصيبهم مكروه .

لأنه كان يتخوف عليهم من اليهود - بني قريظة - حيث كانت منازلهم مما يلي العوالي[2] وكانوا قد مالؤوا الأحزاب ووافقوهم على نقض العهد الذي ابرموه مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فقد روى الطبراني حيث قال: "عن هرير بن عبد الرحمن بن رافع بن خديج عن أبيه عن جده قال: "لما كان يوم الخندق لم يكن

---

(١) الأطم بضمة وضمتين القصر وكل حصن مبني بالحجارة وكل بيت مربع مسطح . القاموس ، ٤/ ٧٤ .

(٢) العوالي بالفتح جمع العالي ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال وقيل ثلاثة (وهو الصحيح) . انظر: مراصد الإطلاع ٢/ ٩٧٠ .

حصن أحصن من حصن بني حارثة فجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النساء والصبيان والذراري فيه "فقال: "إن ألمَّ بكن[1] أحد فالمعن بالسيف" فجاءهن رجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له نجدان - أحد بني جحاش على فرس حتى كان في أصل الحصن ثم جعل يقول للنساء انزلن إلى خير لكن فحركن السيف فأبصره أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بني حارثة يقال له ظهير بن رافع فقال: "يا نجدان ابرز فبرز إليه فحمل عليه فرسه فقتله وأخذ رأسه فذهب به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[2].

تواضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومباشرته الحفر بنفسه:

كان صلوات الله عليه وسلامه المثل الأعلى في التواضع، وذلك لحسن أخلاقه التي مدحه الله به، وهذا حاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السلم والحرب على السواء. وتواضعه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الموضع قليل من كثير.

فقد روى البخاري عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال: "أتيت جابراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة[3] فجاءوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق" فقال: "أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعول[4] فضرب فعاد كثيباً[5] أهيل أو أهيم"[6] فقلت يا رسول الله: "ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي رأيت بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً ما كان في ذلك صبر فعندك شيء؟ قالت عندي شعير وعناق[7]. فذبحتُ العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم

---

(١) إن ألم بكن أي إذا حصل ذلك وهو دخول أي غريب عنهم اليهن.

(٢) مجمع الزوائد، ٦/ ١٣٣، وهو في المعجم الكبير، ٤/ ٣١٨حديث، ٤٣٧٨، تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٥٧٠ - ٥٧١.

(٣) الكدية: هي القطعة الشديدة الصلبة من الأرض.

(٤) المعول: الفأس العظيمة التي ينقر بها الصخر والجمع المعاول، مختار الصحاح، ص ٤٦٣.

(٥) الكثيب: الرمل المستطيل المحدودب. النهاية في غريب الحديث، ٤/ ١٥٢.

(٦) المعنى أنه صار رملاً يسيل ولا يتماسك قال تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ أي رملاً سائلاً، وأما أهيم فقال عياض: ضبطها بعضهم بالمثلثة وبعضهم بالمثناة وفسرها بأنها تكسرت. فتح الباري ٧/ ٣٩٦.

(٧) صحيح البخاري مع الفتح، ٧/ ٣٩٥، والعناق الأنثى من الماعز ما لم يتم له سنة، النهاية، ٣/ ٣١١.

في البرمة[1] ثم جئت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي[2] قد كادت تنضج فقلت: طعيم[3] لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان قال: كم هو فذكرت له: فقال: «**كثير طيب**» . قال: قل لها: «**لا تنزع البرمة ولا الخبر من التنور**[4] **حتى آتي**» . فقال: قوموا فقام المهاجرون والأنصار . فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم قالت: هل سألك قلت: نعم . فقال: «**ادخلوا ولا تضاغطوا**» [5] فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر[6] البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف[7] حتى شبعوا وبقي بقية . قال: «**كلي هذا واهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة**» [8] .

وهناك أحاديث صحيحة تبين بوضوح مباشرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحفر ونقل التراب مع صحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من ذلك ما روي البخاري ونصه:

عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو إغبر بطنه[9] . يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ::: ولا تصدقنا ولا صلينا
إن الأُلى قد بغوا علينا ::: وثبت الأقدام إن لاقينا
فأنزلن سكينة علينا ::: إذا أرادوا فتنة أبينا

قال البراء: "ويرفع بها صوته أبينا أبينا"[10] .

---

(١) البرمة: هو القدر مطلقاً وهي في الأصل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن . النهاية ، ١/ ١٢١ .

(٢) الأثافي: هي حجار ثلاث يوضع عليها القدر . مختار الصحاح ، ٨٤ .

(٣) بالتصغير للقلة .

(٤) التنور: الذي يخبز فيه ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ مختار الصحاح ، ٧٩ .

(٥) فيه دليل على كثرتهم ومعنى لا تضاغطوا: أي لا تتزاحموا .

(٦) أي يغطى .

(٧) أي يغرف مرقاً من البرمة .

(٨) فتح الباري ، ٧/ ٣٩٥ ، مسند الإمام أحمد ، ٣/ ٣٠٠ - ٣٠١ ، سنن النسائي ، ٦/ ٤٣ باب غزوة الترك والحبشة والرواية ليست عن جابر وإنما هي عن رجل من الصحابة ، دلائل النبوة ، ٣/ ٤١٧ .

(٩) والمعنى وارى التراب جلدة بطنه . الفتح ، ٧/ ٣٩٩ .

(١٠) فيه دليل على تواضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وانشراح صدره ومجاراته لأصحابه فيما هو حلال وطيب . وانظر أيضاً: صحيح مسلم ٣/ ١٤٣٠ باب غزوة الأحزاب وهي الخندق .ومسند

وهذا يدل بجلاء على مشاركته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم وعلى تواضعه وقد جاء عند أحمد عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "ما نسيت قوله يوم الخندق وهو يعاطيهم اللبن وقد أغبر شعر صدره وهو يقول: «**اللهم إن الخير خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة**»[1].

لذلك قال ابن هشام: "فلما سمع بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أجمعوا عليه من الأمر ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترغيباً للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون فيه فدأب فيه ودأبوا وأبطأ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا إذن.

أما المسلمون فكانوا لا يستأذنون إلا عند الضرورة فإذا قضوا حاجاتهم رجعوا إلى ما كانوا فيه من عمل رغبة في الخير واحتساباً له وقد أنزل الله في ذلك قرآنا يتلى فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ... الآية**﴾ [النور: ٦٢].

حيث نزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة في الخير والطاعة لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

ثم قال تعالى يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون ويذهبون بغير إذن من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣].

وهذه الآيات عامة ساقها ابن هشام وغيره للاستدلال بها على الفريقين. وعامة في الاستئذان سواء في الحرب أو في السلم وهي في الحقيقة نزلت كما قال ابن كثير في الذين يستأذنون في الخروج من الجمعة وغيرها[3].

وكان لتقسيم العمل وإسهام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه إلى جانب أصحابه،

الإمام أحمد، ٤/ ٢٨٢/ ٢٨٥ - ٢٩١/ ٣٠٠/ ٣٠٢/ ٣٠٣، وسنن الدارمي، ٢/ ٢٢١، والمسند، ١/ ٢٢٧ رقم (٣١٧).

(١) مسند الإمام أحمد، ٦/ ٢٨٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٠٦.

والإيمان العميق الذي كان يدفع المسلمين إلى بذل كل طاقاتهم لإنجاز الخطة الدفاعية وشعورهم بعظم الخطر المحدق إن هوجمت المدينة قبل أن ينجز حفر الخندق. فضلاً عن تأميل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جنده بالنصر القريب في الأرض والأجر العريض في السماء.

وكان لهذه الأمور جميعاً الأثر الحاسم في تمكين المسلمين من حفر الخندق الذي يمتد "اثنا عشر ألف ذراع"[1]. في ستة أيام قبل أن يدهمهم الأعداء[2].

وبعد أن اجتمع الوفد اليهودي بقيادة زعيمهم الحاقد حيي بن أخطب بقواد قريش وزعمائها، اجتمع زعماء قريش في دار الندوة للمشاورة وخرجوا بقرار نهائي هو الموافقة على ما أراده اليهود منهم وقد صادف هوى في نفوسهم ألا وهو استئصال الإسلام والقضاء على حامليه كما كانوا يعتقدون ذلك؛ لأن نظرتهم كانت تغتر بالعدد الكبير الذي حشدوه إلى أرض المعركة، ونسوا أن النصر من عند الله، وأنه هو الذي نصر المؤمنين مع قلتهم في بدر وغيرها. تجاهلوا ذلك كله وكان يراودهم أمل متعلق بالكثرة الكاثرة التي ذهب اليهود من أجلها إلى غطفان وبقية القبائل المعادية للإسلام في ذلك الوقت.

ولكنهم كما قال الله تعالى: ﴿... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وهم مع ذلك لا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿...كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ...﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال ابن إسحاق: "ولما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة[3] بين الجرف وزغابة[4] في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة، وأهل تهامة وأقبلت غطفان، ومن تبعهم من

---

(١) هذه المسافة تقدر بستة كيلوات.

(٢) الطبقات الكبرى، ٢/ ٦٦ - ٦٧، إبراهيم بن محمد المدخلي، مرويات غزوة الخندق، ص٢٠٢.

(٣) رومة: بضم الراء وسكون الواو: أرض بالمدينة بين الجرف وزغابة نزلها المشركون عام الخندق. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣/ ١٠٤.

(٤) زغابة أوالغابة تبدأ من مجتمع الأسيال على سبعة أميال من جبل سلع على طريق الشام، وبها أشجار ومراع يحتطب منها الناس ويرعون شجرها. ياقوت: معجم البلدان، ٣/ ١٤١ - ١٤٢، الفيروزآبادي، القاموس، ١/ ٧٩.

أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمي[1] إلى جانب أحد"[2].

وقد ذكر ابن سعد أن زعماء قريش دخلوا دار الندوة وعقدوا اللواء فيها وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وقال: "لما أجلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بني النضير ساروا إلى خيبر فخرج نفر من أشرافهم ووجوههم إلى مكة فألبوا قريشاً ودعوهم إلى الخروج إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعاهدوهم على قتاله ووعدوهم لذلك موعداً ثم خرجوا من عندهم حتى أتوا غطفان وسليماً ففارقوهم على مثل ما اتفقوا عليه مع قريش". قال ابن سعد: "عندئذ تجهزت قريش وجمعوا أحابيشهم ومن تبعهم من العرب فكانوا أربعة آلاف وعقدوا اللواء في دار الندوة، وحمله عثمان بن طلحة ابن أبي طلحة، وقادوا معهم ثلاثمائة فرس وكان معهم ألف وخمسمائة بعير قال: "وخرجوا يقودهم أبو سفيان بن حرب بن أمية"، ووافقهم بنو سليم بمر الظهران وهم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس"[3].

والخلاصة: أن عدد جيش الكفار كان عشرة آلاف، وهو العدد الإجمالي الذي ذكره ابن إسحاق وغير واحد.

وعلى الجبهة الثانية كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أتم استعداداته لمواجهة الأحزاب، قال ابن إسحاق: "وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين"، وكان يحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة وكان يحمل لواء الأنصار سعد بن عبادة[4].

وقسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة الخندق وحراسة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه، وكانوا

---

(١) نقمي: بالتحريك والقصر: موضع من أعراض المدينة كان لآل أبي طالب، قال ابن إسحاق، وأقبلت غطفان يوم الخندق، ومن تبعها من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمي إلى جانب أحد. ياقوت: معجم البلدان ٥/ ٣٠٠، الفيروزآبادي، القاموس، ٤/ ١٨٣.

(٢) السيرة النبوية، ٢/ ٢١٥، والروض الأنف، ٣/ ٢٦١.

(٣) الطبقات الكبرى، ٢/ ٥.

(٤) السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٠، الروض الأنف، ٣/ ٢٦١، الطبقات الكبرى، ٢/ ٦٦، جامع البيان، ٢١/ ١٣٠، دلائل النبوة، ٣/ ٤٥٢، الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٨١، الكامل في التاريخ، ٢/ ١٢٣، عيون الأثر، ٢/ ٥٧، البداية والنهاية، ٤/ ١٠٢، تاريخ الخميس ١/ ٤٨٠.

على أهبة الاستعداد جنودًا وقيادة ، فقد بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلمة بن أسلم في مائتي رجل وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة .

وكان عباد بن بشر على حرس قبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة[1] .

قال ابن القيم: "والذي كان على حرسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الخندق الزبير بن العوام"[2] وعندما استقر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معسكره المختار حسب الخطة العسكرية الناجحة نظم جنود المسلمين ووزعهم فبعضهم للحراسة على الخندق ومنافذه وبعضهم على قبته لأنها كانت مستهدفة من الأعداء .

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختلف بنفسه إلى ثلمة[3] في الخندق يحرسها وكان الوقت شتاء شديد البرودة ، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "كنت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بالخندق فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعاهد ثغرة من الجبل يخاف منها فيأتي فيضطجع في حجري ثم يقوم فيتسمع فسمع حس إنسان عليه الحديد فانسل"[4] في الجبل فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من هذا؟» . فقال: "أنا سعد جئتك لتأمرني بأمرك" فأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يثبت في تلك الثغرة".

قالت عائشة: "فنام رسول الله في حجري حتى سمعت غطيطه[5] فقالت عائشة لا أنساها لسعد"[6] .

وحديث البزار وإن كان ضعيفاً إلا أن ما جاء عند البخاري والترمذي يقويه والحديث يدل بوضوح على: الشدة التي عاناها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأصحابه في هذه الغزوة وأن الخطر الذي أحدق بهم كان كبيراً حتى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتعاهد تلك الثغرة بنفسه يخاف على المسلمين منها وأن القائد عليه ما على جنوده

---

(١) الطبقات الكبرى ، ٢/ ٦٧ .

(٢) وكان الذي قام علي حراسته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر حين نام في العريش سعد بن معاذ ويوم أحد محمد بن مسلمة .انظر: زاد المعاد ١/ ١٢٧ .

(٣) الثلمة والثغرة بمعنى واحد وهي الفتحة . النهاية في غريب الحديث ، ١/ ٢١٣ .

(٤) أنسل: أسرع خفية . القاموس المحيط ، ٤/ ٥٧ .

(٥) غط النائم إذا سمع له صوت من الفم . القاموس المحيط ، ٢/ ٣٧٦ .

(٦) الهيثمي ، كشف الأستار ، ٢/ ٣٣٣ . قال: "في الصحيح طرف منه ثم قال: رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف" انظر: مجمع الزوائد ، ٦/ ١٣٥ .

من حراسة ومرابطة ؛ بل إن القائد هو المثل الأعلى لجنوده والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان خير قائد[1] .

قالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف المريسيع وخيبر وكنا بالحديبية وفي الفتح وحنين لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أخوف عندنا من الخندق ، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة[2] ، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري فالمدينة تحرس حتى الصباح نسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً . حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً .

قال وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختلف إلى ثلمة في الخندق يحرسها فإذا آذاه البرد دخل قبته فأدفأته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حضنها[3] فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلمة يحرسها ويقول: «**ما أخشى على الناس إلا منها**»[4] .

تواطؤ اليهود مع المشركين وعزمهم على ضرب المسلمين من الخلف:

لقد اشتد البلاء على المسلمين في هذه الغزوة بالذات ؛ لأن قريشاً جاءت بحلفائها كما جاءت غطفان بكل قوادها وحلفائها مستهدفين استئصال الإسلام والمسلمين وفي أثناء الاستعداد لهذه الجموع الزاحفة جاء عدو الله حيي بن أخطب وهو أحد الأعضاء الذين حزبوا الأحزاب جاء إلى كعب بن أسد رئيس القبيلة الباقية من اليهود وهي قبيلة بني قريظة وجادله على نقض العهد وفتله في الذروة والغارب حتى وافق على ذلك بشروط تقبلها عدو الله حيي بن أخطب .

وبنوقريظة كما هو معروف كانوا يسكنون في العوالي أي في الجنوب الشرقي من المدينة على وادي مهزور[5] إذن فهم يعتبرون خلف المسلمين ويكونون أخطر على هذه الحال لأن الضربة من الوراء تؤثر أكثر حيث أن المسلمين يستعدون ومستحفزون لأعدائهم الذين أمامهم ولكن الله نصر المسلمين وخذل أعداءه وأعداءهم وقد وصف الله سبحانه .

وتعالى ذلك البلاء وتلك الشدة التي أتت على المسلمين لم يأت عليهم مثلها

---

(١) إبراهيم بن محمد المدخلي ، مرويات غزوة الخندق ، ص ٢٢٩ .

(٢) الحرج: أضيق الضيق . النهاية في غريب الحديث ، ١/ ٣٦١ .

(٣) الحضن: مادون الإبط إلى الكشح وحضن الطائر بيضه إذا ضمه إلى نفسه . مختار الصحاح ١٤٢ .

(٤) المغازي للواقدي ، ٢/ ٤٦٧ .

(٥) مهزور وقيل مهزوز واد بالمدينة كان يسمى وادي قريظة كان يسيل بماء المطر يهبط من مفرق حرة واقم ثم يسيل ويصب في وادي بطحان . معجم البلدان ، ٥/ ٢٣٤ .

حيث قال سبحانه: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ٩ - ١٠].

وقال تعالى مبيناً مناصرة وموافقة اليهود (بني قريظة) للأحزاب: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ[1] وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٦].

فقد وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسعد القرظي صاحب عقد بني قريظة[2]، وعهدهم وكان قد وادع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قومه عاقده على ذلك وعاهده فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حيي ويحك[3] يا كعب افتح لي قال ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً"، قال: "ويحك افتح أكلمك". قال: "ما أنا بفاعل قال والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك[4] أن آكل معك منها فاحفظ[5] الرجل ففتح له".

فقال: "ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر ببحر طام[6] جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمي إلى جانب أحد. قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا[7] حتى نستأصل محمداً ومن معه قال فقال له كعب: جئتني والله بذل

---

(١) صياصيهم أي حصونهم والأصل في الصياصي هي قرون البقر ومنه قيل للحصون (الصياصي). النهاية في غريب الحديث، ٣/ ٦٧.

(٢) أي أنه كان رئيسهم وسيدهم.

(٣) ويح: كلمة ترحّم وتوجّع تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها وقد يقال بمعنى المدح والتعجب وهي منصوبة على المصدر. النهاية ٥/ ٢٣٥.

(٤) الجشيشة: طعام يصنع من الجشيش وهو البر يطحن غليظاً ثم تجعل في القدور ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ. النهاية في غريب الحديث، ١/ ٢٧٣.

(٥) احفظه: أغضبه.

(٦) طام: مرتفع ويريد كثرة الرجال.

(٧) على أن لا يتركوا أو يغادروا المكان.

الدهر وبجهام[1] قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب[2] حتى سمع له على أن أعطاه عهداً (من الله) وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "[3].

وقد أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيونه متحرياً عن نقض اليهود للعهد الذي أبرموه معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ابن إسحاق: فلما انتهى إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعد بن معاذ بن النعمان وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة بن دليم أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج وخوات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف فقال: «**انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً**[4] **أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس**». قال فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم (فيما)[5] نالوا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد ابن معاذ[6] وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدة فقال له سعد بن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى[7] من المشاتمة ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلموا عليه ثم قالوا عضل والقارة أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه فقال

---

(١) الجهام السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.

(٢) هذا مثل وأصله في البعير يستعصي عليك فتأخذ القراد من ذروته وغارب سنامه وتفتل هناك فيجد لذة فيأنس عند ذلك.

(٣) الروض الأنف، ٣/ ٤٢٢، جامع البيان، ٢١/ ١٢٩ - ١٣٠.

(٤) الحنوا لي لحنا: أي قولوا لي قولاً أفهمه ويخفى على غيري. القاموس ٤/ ٣٦٦.

(٥) قوله (فيما نالو) وعند الطبري ونالوا.

(٦) فشاتمهم سعد بن معاذ (عند الطبري فشاتمهم سعد بن عبادة) وكذا عند ابن كثير في البداية، ٤/ ١٠٤.

(٧) أربى مأخوذ من الربا وهو لغة الزيادة.

رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين» [1].

وقد أورد ابن كثير هذه القصة وفيها زيادة حسنة فقال بعد أن ذكر محاورة حيي بن أخطب لكعب: وقد تكلم عمرو بن سعد القرظي فأحسن فذكرهم ميثاق رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعهده ومعاقدتهم إياه على نصره وقال: "إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوّه" ثم قال ابن كثير: قال ابن إسحاق: "فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمع له - يعني في نقض عهد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وفي محاربته مع الأحزاب . . . وأمر كعب بن أسد وبنو قريظة حيياً أن يأخذ لهم من قريش وغطفان رهائن تكون عندهم لئلا ينالهم ضيم إن هم رجعوا ولم يناجزوا محمداً . قالوا وتكون الرهائن تسعين رجلاً[2] من أشرافهم فنازلهم[3] حيي على ذلك فعند ذلك نقضوا العهد ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد إلا بني سعنة[4] أسد وأسيد وثعلبة فإنهم خرجوا إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ" [5].

تخذيل المنافقين للصف الإسلامي:

إن موقف المنافقين وخذلانهم للمسلمين في الأوقات الحرجة أوقات الضيق والمواقف الصعبة شيء معتاد، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز دينه قال عبد الله بن أبي بن سلول: هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب".

فلما كانت غزوة أحد وخرج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لملاقاة أعدائه حتى إذا كانوا بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد الله ابن أبي بن سلول بثلث الناس، وقال أطاعهم وعصاني [6] ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس فرجع بمن

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢، جامع البيان، ٢١/ ١٢٩ - ١٣١، تاريخ الأمم الملوك، ٣/ ٤٦، ٤٧، السهيلي، الروض الأنف ٣/ ٢٦٨، عيون الأثر، ٣/ ٥٩.

(٢) البيهقي، الدلائل، ٣/ ٤٤٦، ابن كثير في البداية، ٤/ ١٠٣، المقريزي، الإمتاع، ١/ ٢٣٧.

(٣) أي التزم لهم بذلك.

(٤) وهم من اليهود إلا أن ابن هشام قال إنهم ليسو من بني قريظة وإنما هم من بني هدل ونسبهم فوق ذلك وهم بنو عم القوم. ابن هشام، السيرة النبوية ٢/ ٢٣٨.

(٥) البداية والنهاية، ٤/ ١٠٣ - ١٠٤، ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٢.

(٦) يشير إلى المشاورة التي دارت قبل الخروج إلى أحد وكان من رأي كبير المنافقين القعود في المدينة ووافق الرسول مع القائلين بالخروج فأخذ من هذا حجة وذريعة.

اتبعه من قومه من أهل النفاق [1] واستمر وضعهم هذا حتى جاءت هذه الغزوة - غزوة الخندق - فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم سورة الأحزاب فقد ذكر سبحانه مجيء الأحزاب والحالة الشديدة التي عاناها المسلمون والبلاء الذي امتحنهم الله به فثبت المؤمنون وانكشف أعداء الله المنافقون فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [الأحزاب: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً * قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: ١٣ - ٢٠].

إن الآيات السابقة أشارت إلى النفاق وما تولد عنه من القلق في النفوس، والجبن في القلوب، وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للانصراف عن ميدان العمل، والقتال بحجج واهية؛ زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك موقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام [2].

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٦٤.
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٢٥.

ما دار في غزوة الأحزاب من مناوشات:

بعد أن تم حفر الخندق ووصلت الأحزاب ونقض بنو قريظة العهد المبرم مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونجم النفاق وقال المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٢]، واشتد البلاء حيث بين الله سبحانه وتعالى ذلك الموقف بقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ الآيات (الأحزاب: ١٠، ١١)، تزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح، وعرف المسلمون مَنْ يتربص بهم وراء هذا الحصار فقرروا مواصلة المرابطة في مكانهم ينضحون بالنبل كل مقترب ويتحملون لأواء هذه الحراسة التي تنتظم السهل والجبل وتتسع ثغورها يوماً بعد يوم.

وبدأ الحصار واشتدت وطأته وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول المدينة على هذا النحو فإن فرض الحصار وترقب نتائجه ليس من شيمهم وكانوا يحاولون شتى المحاولات لتحطيم هذا الحصار وهم في كل ذلك يفشلون أمام صمود المسلمين: "فأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرابطاً وأقام المشركون يحاصرونه بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر ولم يكن بينهم حرب إلا الرميا[١] بالنبل[٢].

قال ابن إسحاق: "في سياق حديثه عن المناوشات التي حصلت بين الفريقين ثم تيمموا[٣] مكاناً ضيقاً[٤] فضربوا خيلهم فاقتحمت[٥] منه فجالت بهم في السبخة[٦] بين الخندق وسلع.

وخرج علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم

---

(١) الرميا بكسر الراء والميم مشددتين وتخفيف الياء أي المراماة.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٤، البداية والنهاية، ٤/ ١٠٤، الكامل لابن الأثير، ٢/ ١٢٤، ٦ عيون الأثر، ٢/ ٦٠، تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٤٧، جامع البيان، ٢١/ ١٢٨.

(٣) تيمموا: قصدوا. النهاية في غريب الحديث، ٥/ ٣٠٠.

(٤) قال بعض المؤرخين -: "أن هذا المكان أغفله المسلمون ويمكن أن يقال أنه لصعوبة المكان وصلابته ولأن المنطقة كما هو معروف - أكثرها صخرية - كان هذا المكان ضيقاً والله أعلم".

(٥) اقتحمت: اقتحم في الأمر رمي بنفسه فيه من غير رويّة. مختار الصحاح ٥٢٢.

(٦) السبخة بالتحريك واحدة السباخ وهي الأرض الملحة النازة. معجم البلدان ٣/ ١٨٣.

الثغرة[1] التي أقحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق[2] نحوهم[3].

وهنا أحس الفريقان بالخطر وكانت هي الشرارة الأولى التي ألهبت حماس الفريقين.

قال ابن إسحاق: "وكان عمرو بن عبدود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد فلما كان يوم الخندق خرج معلماً[4] ليرى مكانه فلما وقف هو وخيله قال من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب فقال له ياعمرو: "إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه قال له: أجل". قال له علي: "فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام" قال "لا حاجة لي بذلك". قال "فإني أدعوك إلى النزال" فقال له: "لم يابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك". قال له علي: "لكني والله أحب أن أقتلك" فحمي[5] عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره[6] وضرب وجهه ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا فقتله علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

قال ابن إسحاق: "وقال علي رضوان الله عليه في ذلك:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ::: ونصرت رب محمد بصوابي
لا تحسبن الله خاذل دينه ::: كالجذع بين دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه ولو أنني ::: كنت المقطر بزّني أثوابي[7]
فصددت حين تركته متجدلاً ::: ونبيه يا معشر الأحزاب[8]

قال ابن هشام: "وأكثر أهل الشعر يشك فيها لعلي بن أبي طالب"[9].

قال البيهقي: "وخرج عمرو بن عبد ود وهو مقنع بالحديد فنادى من يبارز؟ فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنا لها يا نبي الله فقال: «**إنه عمرو اجلس**»، ونادى عمرو ألا

---

(١) الثغرة: الثلمة وهي موضع المخافة من أطراف البلاد. النهاية في غريب بالحديث ١/ ٢١٣.
(٢) العنق: بفتح العين والنون. نوع من سير الإبل والخيل وهو الوسط بين السريع والبطئ.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٤.
(٤) معلماً: المعلم الذي يجعل له علامة يعرف بها.
(٥) فحمى: أشتد غضبه.
(٦) عقر البعير والفرس بالسيف (فانعقر) أي ضرب قوائمه. المختار الصحاح ٤٤٥.
(٧) المقطر: هو الذي يلقي على قطره - وتقطر - تهيأ للقتال ورمي بنفسه من علو. وبزّني: سلبني ثيابي أو أي شيء كان معي. القاموس المحيط، ٢/ ١١٩، ١١٦.
(٨) هكذا جاء عند ابن إسحاق وفي الاكتفاء للكلاعي، ٢/ ١٦٨.
(٩) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٥.

رجل وهو يؤنبهم "[1] ويقول أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها أفلا تبرزون إليّ رجلاً فقام علي فقال: أنا يا رسول الله فقال: «اجلس»ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بححت من النداء ::: بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع ::: موقف القرن[2] المناجز

قال فقام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال يا رسول الله: "أنا فقال إنه عمرو فقال وإن كان عمراً فأذن له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمشى إليه حتى أتاه وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك ::: مجيب صوتك غير عاجز
من ضربة نجلاء ::: والصدق منجا كل فايز
إني لأرجو أن أقيم ::: عليك نائحة الجنائز
ذو نية وبصيرة ::: يبقى ذكرها عند الهزاهز

وفي رواية أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاه سيفه ذا الفقار وألبسه درعه الحديد وعممه بعمامته وقال: «**اللهم أعنه عليه**» وفي لفظ: «**اللهم هذا أخي وابن عمي فلا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين**»[3].

فقال له عمرو من أنت؟ قال أنا علي قال ابن عبد مناف؟ قال أنا علي بن أبي طالب[4]. فقال يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن فإني أكره أن أهريق دمك؟ فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك، فغضب فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضبا واستقبله علي بدرقته فضربه عمرو في درقته فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وضربه علي على حبل عاتقه فسقط وثار العجاج وسمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التكبير، فعرفنا أن عليا قد قتله فثم يقول علي:

أعليّ تقتحم الفوارس هكذا ::: عني وعنهم أخروا أصحابي
اليوم تمنعني الفرار حفيظتي ::: ومصمم في الراس ليس بنابي

إلى أن قال:

---

(١) التأنيب المبالغة في التوبيخ والتعنيف. النهاية في غريب الحديث، ١/ ٧٣.
(٢) القرن: بكسر المثناة المعجمة وهو الكفؤ في الشجاعة. المختار، ٥٣٢.
(٣) ذكر هذا صاحب السيرة الحلبية، ٢/ ٦٤١.
(٤) واسم أبي طالب – عبد مناف.

عبد الحجارة من سفاهة رأيه ::: وعبدت رب محمد بصوابي

قال ثم أقبل علي نحو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووجهه يتهلل[1].

قال ابن سعد: "ثم أَجْمع رؤساؤهم أن يغدوا يوماً فغدوا جميعاً ومعهم رؤساء سائر الأحزاب وطَلَبوا مضيقاً من الخندق يقحمون منه خيلهم إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه فلم يجدوا ذلك وقالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تصنعها قالو فمن هناك إذاً، فصاروا إلى مكان ضيق أغفله المسلمون فعبر عكرمة بن أبي جهل ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب وعمرو بن عبد ود وذكر المبارزة إلى أن قال: وولي أصحابه[2] هاربين وظفرت بهم خيولهم[3] وحمل الزبير بن العوام على بالسيف فضربه فشقه باثنين"[4].

ولما قتل نوفل بن عبد الله كبر ذلك على المشركين وأرسلوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنا نعطيكم الدية على أن تدفعوه إلينا فندفنه فرد إليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه خبيث خبيث الدية فلعنه الله ولعن ديته ولا نمنعكم أن تدفنوه ولا أرب[5] لنا في ديته وقيل: «**أعطوه في جثته عشرة آلاف**»[6].

واستمرت المعركة والحصار مضروب فما مضت أسابيع ثلاثة على ذلك الحصار المضروب حتى دب القنوط والتخاذل في صفوف المهاجمين على حين بقيت جبهة المدافعين عن حوزة الدين الإسلامي - سليمة لم تثلم ورغم كثرة الأعداء وتحرشاتهم ومناوشاتهم المستمرة طيلة تلك المدة إلا أنه لم يقتل من المسلمين إلا عدد قليل وهم: سعد بن معاذ سيد الأوس وحامل لوائهم يوم الخندق استطاع حبان بن العرقة من المشركين أن يرمي سهمًا أصابه في أكحله[7]، وقال: خذها وأنا ابن العرقة، وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم

---

(١) الدلائل للبيهقي ٣/ ٤٣٩، البداية والنهاية، ٤/ ١٠٦ - ١٠٧، والروض الأنف، ٣/ ٢٧٩.

(٢) يرجع الضمير في قوله - وولي أصحابه - إلى عمرو بن عبدود.

(٣) الضمير محتمل الرجوع إلى خيل المسلمين وقد يكون راجعا إلى خيل الكفار.

(٤) الطبقات الكبرى، ٢/ ٦٨.

(٥) الأرب: الحاجة. مختار الصحاح، ص ١٣.

(٦) عيون الأثر، ٢/ ٦٠.

(٧) الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة إذا قطع لم يرقأ الدم.

فاجعلها شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[1]، وأنس بن أوس بن عتيك، رماه خالد بن الوليد بسهم فقتله ولم يشهد بدراً"[2]، وعبد الله بن سهل الأشهلي[3] وثعلبة بن عنمة بن عدي بن نابي، وطفيل بن النعمان بن خنساء بن سنان[4]، وكعب بن زيد النجاري[5] وسليط وسفيان بن عوف الأسلمي، وروي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث سليطا وسفيان بن عوف الأسلمي طليعة يوم الأحزاب فخرجا حتى إذا كانا بالبيداء إلتفت عليهم خيل لأبي سفيان فقاتلا حتى قتلا فأتيَ بهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدفنا في قبر واحداً فهما الشهيدان القرينان[6]، وسنان بن صيفي الخزرجي[7].

ورغم كثرة المناوشات التي قامت بها جموع الأحزاب ورغم كثرتهم ومع ذلك فقد قتل من المشركين ثلاثة فقط[8] وقيل أربعة[9] وهم: منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار. أصابه سهم فمات منه بمكة[10] ونوفل بن عبد الله بن المغيرة، اقتحم الخندق بفرسه فتورط فيه فقتل هناك[11]، عمرو بن عَبْدُ ود العامري، قتله علي مبارزة[12] وحسل بن عمرو[13].

هؤلاء الذين قتلوا من المشركين رغم كثرتهم ويمكن أن نرجع سبب قلة القتلى من الجانبين إلى أن: "وجود الخندق كان له سبب مباشر بعد الله. ذلك لأن المشركين تخوفوا من هذه المكيدة ولم يقتل إلا من اقتحم أو اقترب كما فعل نوفل

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (٣/ ١٣٨٩) رقم ١٧٦٩.
(٢) أسد الغابة، ١/ ١٢٢، والاستيعاب، ١/ ١٩٨.
(٣) أسد الغابة، ٣/ ١٧١، والاستيعاب، ٣/ ٥٦.
(٤) أسد الغابة، ٣/ ٥٦، البداية والنهاية، ٤/ ١١٦، والسيرة النبوية، ٣/ ٢٢٢، الطبقات الكبرى، ٣/ ٥٧٣، السيرة الحلبية، ٢/ ٦٤٨.
(٥) الطبقات الكبرى، ٢/ ٧٠، البداية والنهاية، ٤/ ١١٦، أسد الغابة، ٤/ ٢٤١.
(٦) مجمع الزوائد، ٦/ ١٣٥.
(٧) الاشتقاق، ص ٤٦٥. وانظر ترجمته في الطبقات الكبرى، ٣/ ٥٧٢، أسد الغابة، ٢/ ٣٥٩.
(٨) هذا ما اتفق على إيراده المؤرخون وأهل المغازي.
(٩) ذكر الرابع وانفرد به ابن هشام. السيرة النبوية، ٣/ ٢٥٣.
(١٠) كذلك انفرد ابن هشام بهذه التسمية والبقية يقولون أن اسمه (منبه).
(١١) البداية والنهاية، ٤/ ١١٦.
(١٢) تاريخ الخميس، ١/ ٤٨٧، السيرة النبوية، ٢/ ٢٥٣، ٣، الطبقات الكبرى، ٢/ ٦٨ - ٧٠، تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٤٩، الكامل، ٢/ ١٢٤، البداية والنهاية، ٤/ ١١٦.
(١٣) السيرة النبوية، ٢/ ٢٥٣.

وعمرو بن ود. والخندق في الحقيقة نصر من الله حيث ألهمهم الله إلى حفره وأعانهم على سرعة إنجازه فكان حاجزاً حصيناً ولكي يبين الله سبحانه لأعداء المسلمين من منافقين وكفار أن النصر بيد الله وليست بالكثرة وأنه متى كان الله سبحانه مع فئة ولو قليلة تكون لها الغلبة في النهاية ذلك لأن هذه الفئة القليلة تقاتل عن عقيدة سامية ومبدأ عظيم ألا وهو الإسلام[1].

ولما طال الحصار أخذ اليهود قبحهم الله يرسلون إمدادات للأحزاب، وذكر صاحب السيرة الحلبية: أن دورية مسلحة من الأنصار خرج رجالها ليدفنوا ميتاً لهم فصادفوا قافلة من عشرين بعيراً محملة تمراً وشعيراً وتبناً. فأخذها المسلمون وخفف الله بها عليهم من ضائقة المجاعة التي كانوا يعانونها[2].

وهذا جعل الهزائم تتوالى على الأحزاب إضافة إلي قتل أربعة من فرسان المشركين وصناديدهم، مما زاد من حقدهم، وزادوا من نشاط خيلهم فكانت الخيول تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح فتخلفها أعداد طول النهار وأصحابها يطمعون في أخذ المسلمين على حين غرة وذلك لأن خالد بن الوليد كان في هذه الغزوة قائداً للفرسان كما كان في غزوة أحد وهو يطمع كما فعل في أحد أن يصيب غرة من المسلمين ولكن هيهات "لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين"[3].

قال ابن سعد: فكان المشركون يتناوبون بينهم فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً ويغدو خالد بن الوليد يوماً ويغدو عمرو بن العاص يوماً ويغدو هبيرة بن أبي وهب الذي نجا من الكرة الأولى يوماً ويغدو ضرار بن الخطاب الفهري يوماً فلا يزالون يجيلون خيلهم يتفرقون مرة ويجتمعون أخرى ويناوشون أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . وبعد قتل أصحابهم اتعدوا أن يغدوا من الغد فباتوا يعبئون أصحابهم وفرقوا كتائبهم ونحوا[4] إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد فقاتلوهم يومهم ذلك إلى هوي من الليل ما يقدرون أن يزولوا من مواضعهم ولا صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أصحابه

---

(١) إبراهيم بن محمد المدخلي، مرويات غزوة الخندق، ص٤٥٠.

(٢) السيرة الحلبية، ٢/١٠٧.

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب ٨٣، مسلم في كتاب الزهد ٦٣، وأبو داود في الأدب ٢٩، وابن ماجة في الفتن ١٣، والدارمي في الرقاق ٦٥، وأحمد ٢/ ١١٥، ٣٧٩.

(٤) عند ابن سيد الناس جهزوا.

ظهراً ولا عصراً ولا مغرباً ولا عشاء حتى كشفهم الله فرجعوا متفرقين إلى منازلهم وعسكرهم وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأقام أسيد بن الحضير على الخندق في مائتين من المسلمين وكر خالد بن الوليد في خيل من المشركين يطلبون غرة من المسلمين فناوشوهم ساعة ومع المشركين وحشي فزرق[1] الطفيلَ بن النعمان من بني سلمة بمزراقه فقتله وانكشفوا وصار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى قبته فأمر بلالاً فأذن وأقام الظهر فصلى ثم أقام بعد كل صلاة إقامة وصلى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات وقال: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى يعني العصر ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً**»[2].

وفي ظل هذا الموقف العصيب ظهرت حنكته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وحسن سياسته حيث اختار قبيلة غطفان لمصالحتها على مال يدفعه إليها على أن تترك محاربته وترجع إلى بلادها، فهو يعلم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه، أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها؛ ولهذا لم يحاول الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسي، لم يكن المال، وإنما كان هدفهم هدفًا سياسيًّا وعقائديًّا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان، الذين لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[3]، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن، والحارث بن عوف) لطلب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقر قيادة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد، وشرع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مفاوضتهم، وكانت تدور حول عرض تقدم به رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان، وأهم البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة:

أ - عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودة ضمن جيوش الأحزاب.

---

(١) زرقه رماه والمزراق رمح قصير، القاموس، ٣/ ٢٤٠.

(٢) الطبقات الكبرى، ٢/ ٦٨ - ٦٩.

(٣) محمد أحمد باشميل، غزوة الأحزاب، ص٢٠١.

ب - توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضدهم (وخاصة في هذه الفترة) .

ج - تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها .

د - يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من مختلف الأنواع ، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة[1] ، فقد ذكر الواقدي: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لقائدي غطفان: «**أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟**» قالا: تعطينا نصف تمر المدينة ، فأبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يزيدهما على الثلث ، فرضيا بذلك ، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر[2] فجاءوا وقد أحضر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه وأحضر الصحيفة والدواة وأحضر عثمان بن عفان فأعطاه الصحيفة وهو يريد أن يكتب الصلح بينهم وعباد بن بشر قائم على رأس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقنع في الحديد . فأقبل أسيد بن حضير إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يدري بما كان من الكلام فلما جاء إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاء عيينة مادا رجليه بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلم ما يريدون فقال: يا عين الهجرس [3] اقبض رجليك أتمد رجليك بين يدي رسول الله؟ ومعه الرمح . والله لولا رسول الله لأنفذت خصيتيك بالرمح ثم أقبل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله إن كان أمرا من السماء فامض له وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف متى طمعوا بهذا منا؟ فأسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعا سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما في ذلك وهو متكئ عليهما ، والقوم جلوس فتكلم بكلام يخفيه وأخبرهما بما قد أراد من الصلح . فقالا: إن كان هذا أمرا من السماء فامض له وإن كان أمرا لم تؤمر فيه ولك فيه هوى فامض لما كان لك فيه هوى ، فسمعا وطاعة وإن كان إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف . وأخذ سعد بن معاذ الكتاب فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة فقلت أرضيهم ولا أقاتلهم " . فقالا: يا رسول الله إن كانوا ليأكلون العلهز [4] في الجاهلية من الجهد ما

(١) محمد أحمد باشميل ، غزوة الأحزاب ، ص٢٠١ - ٢٠٢ .
(٢) المغازي للواقدي ، ٢/ ٤٧٧ .
(٣) الهجرس: ولد الثعلب ، والهجرس أيضا القرد . انظر: النهاية ، ٤/ ٢٤٠ .
(٤) العلهز: هو شيء يتخذونه في سنى المجاعة ، يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار

طمعوا بهذا منا قط ، أن يأخذوا تمرة إلا بشرى أو قرى فحين أتانا الله تعالى بك ، وأكرمنا بك ، وهدانا بك نعطي الدنية لا نعطيهم أبدا إلا السيف فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**شق الكتاب**» . فتفل سعد فيه ثم شقه وقال: بيننا السيف فقام عيينة وهو يقول: أما والله للتي تركتم خير لكم من الخطة التي أخذتم وما لكم بالقوم طاقة . فقال عباد بن بشر: يا عيينة أبالسيف تخوفنا؟ ستعلم أينا أجزع وإلا فوالله لقد كنت أنت وقومك تأكلون العلهز والرمة [1] من الجهد فتأتون هاهنا ما تطمعون بهذا منا إلا قرى أو شرى ، ونحن لا نعبد شيئا ، فلما هدانا الله وأيدنا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سألتمونا هذه الخطة أما والله لولا مكان رسول الله ما وصلتم إلى قومكم . فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ارجعوا، بيننا السيف!**» رافعا صوته . فرجع عيينة والحارث وهما يقولان والله ما نرى أن ندرك منهم شيئا ، ولقد أنهجت للقوم بصائرهم والله ما حضرت إلا كرها لقوم غلبوني ، وما مقامنا بشيء مع أن قريشا إن علمت بما عرضنا على محمد عرفت أنا قد خذلناها ولم ننصرها .

قال عيينة هو والله ذلك قال الحارث: أما إنا لم نصب بتعرضنا لنصر قريش على محمد والله لئن ظهرت قريش على محمد ليكونن الأمر فيها دون سائر العرب ، مع أني أرى أمر محمد أمرا ظاهرا . والله لقد كان أحبار يهود خيبر وإنهم يحدثون أنهم يجدون في كتبهم أنه يبعث نبي من الحرم على صفته . قال عيينة: إنا والله ما جئنا ننصر قريشا ، ولو استنصرنا قريشا ما نصرتنا ولا خرجت معنا من حرمها . ولكني كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكر مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة مع أنا ننصر حلفاءنا من اليهود فهم جلبونا إلى ما هاهنا . قال الحارث قد والله أبت الأوس والخزرج إلا السيف والله لتقاتلن عن هذا السعف ما بقي منها رجل مقيم وقد أجدب الجناب وهلك الخف والكراع . قال عيينة: لا شيء . فلما أتيا منزلهما جاءتهما غطفان فقالوا: ما وراءكم؟ قالوا: لم يتم الأمر رأينا قوما على بصيرة وبذل أنفسهم دون صاحبهم وقد هلكنا وهلكت قريش ، وقريش تنصرف ولا تكلم محمدا وإنما يقع حر محمد ببني قريظة إذا ولينا جثم عليهم فحصرهم جمعة حتى يعطوا بأيديهم . قال الحارث بعدا وسحقا محمد أحب

ويأكلونه ، وقيل كانوا يخلطون فيه القردان . انظر ، النهاية ، ٣ ، / ١٢٤ .

(١) الرمة ، بالكسر: العظام البالية . انظر: القاموس المحيط ، ٤/ ١٢٢ .

إلينا من اليهود[1].

واستخدام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن، فلقد كان يعلم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هناك تصدعًا خفيًا بين صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها، والآن ساق المولى عز وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليعلن إسلامه، وقال له: يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة**»[2].

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية؛ فقال يا بني قريظة قد عرفتم وُدِّي إياكم وخاصةَ ما بيني وبينكم قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم إن قريشاً وغطفانَ ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره.

وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره. فليسوا كأنتم.

فإن رأوا نهزة[3] أصابوها؛ وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه. فقالوا له لقد أشرت بالرأي.

قال ابن إسحاق: "ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وأنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني، فقالوا نفعل قال تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا أن قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم

---

(١) مغازي الواقدي، ٢ / ٤٨٠.

(٢) البداية والنهاية، ٤/ ١١٣، وانظر: فتح الباري، ٦/ ١٥٧ - ١٥٨ حيث قال الحافظ ذكر الواقدي أن أول ما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحرب خدعه في غزوة الخندق. وانظر: فتح الباري، ٦/ ٦١٨ كتاب المناقب، ١٢/ ٢٨٣.

(٣) النهزة اختلاس الشيء بسرعة والأصل - فرصة.

حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً. ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهموني، فقالوا صدقت ما أنت عندنا بمتهم قال فاكتموا عني قالوا نفعل فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم"[1].

أما الواقدي فقد ذكر القصة باستفاضة وهذا كلامه:

قال: "قال نعيم بن مسعود: "كانت بنو قريظة أهل شرف وأموال، وكنا قوماً عرباً لا نخل لنا ولا كرم، وإنما نحن أهل شاة وبعير؛ فكنت أقدم على كعب بن أسد فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم وآكل من طعامهم ثم يحملونني تمراً على ركابي ما كانت. فارجع إلى أهلي، فلما سارت الأحزاب إلى رسول الله ﷺ سرت مع قومي وأنا على ديني".

وقد كان رسول الله ﷺ عارفاً فأقامت الأحزاب ما أقامت حتى أجدب الجناب وهلك الخف والكراع[2] وقذف الله عز وجل في قلبي الإسلام وكتمت قومي إسلامي، فأخرج حتى آتي رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء، وأجده يصلي فلما رآني جلس ثم قال ما جاء بك يا نعيم؟ قلت: "إني جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق فمرني بما شئت يا رسول الله فوالله لا تأمرني بأمر إلا مضيت له، قومي لا يعلمون إسلامي ولا غيرهم". قال: «**ما استطعت أن تخذل الناس فخذل**»؛ قال: "قلت أفعل ولكن يا رسول الله أقول؟ فاذن لي، قال: «**قل ما بدا لك فأنت في حلّ**»، قال فذهبت حتى جئت بني قريظة فلما رأوني رحبوا وأكرموني وحيوا وعرضوا علي الطعام والشراب، فقلت إني لم آت لشيء من هذا وإنما جئتكم نصباً بأمركم وتخوفاً عليكم لأشير عليكم برأي، وقد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم فقالوا قد عرفنا ذلك وأنت عندنا على ما تحب من الصدق والبر، قال: "فاكتموا عني قالوا نفعل قال إن أمر هذا الرجل بلاء - يعني النبي ﷺ صنع ما قد رأيتم ببني قينقاع وبني النضير وأجلاهم عن بلادهم بعد قبض الأموال".

وكان ابن أبي الحقيق قد سار فينا[3] فاجتمعنا معه لنصركم وأرى الأمر قد

---

(١) السيرة النبوية، ٣/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) بالخف الإبل وفي بعض النسخ الحافر وهو الخيل.

(٣) يريد الذي ذهب محرضاً ضمن الوفد اليهودي.

تطاول كما ترون وأنكم والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة ، أما قريش وغطفان فهم قوم جاءوا سيارة حتى نزلوا حيث رأيتم فإن وجدوا فرصة انتهزوها .

وإن كانت الحرب أو أصابهم ما يكرهون انشمروا إلى بلادهم وأنتم لا تقدرون على ذلك البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم وقد غلظ عليهم جانب محمد أجلبوا عليه أمس إلى الليل[1] فقتل رأسهم عمرو بن عبد وهربوا منه مجرحين وهم لا غناء بهم عنكم لما يعرفون عندكم[2] ، فلا تقاتلوا مع قريش وغطفان حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ، تستوثقون به منهم ألا يناجزوا محمداً ، قالوا أشرت بالرأي علينا والنصح ، ودعوا له وتشكروا وقالوا نحن فاعلون ، قال ولكن اكتموا عني قالوا نعم نفعل .

ثم خرج إلى أبي سفيان بن حرب في رجال من قريش فقال: "يا أبا سفيان قد جئتك بنصيحة فاكتم عني قال أفعل . قال تعلم أن قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمدٍ ، وأرادوا إصلاحه . ومراجعته أرسلوا إليه وأنا عندهم أنا سنأخذ من قريش وغطفان من أشرافهم سبعين رجلاً نسلمهم إليك تضرب أعناقهم وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم يعنون بني النضير - ونكون معك على قريش حتى نردهم عنك ، فإن بعثوا إليكم يسألونكم رهناً فلا تدفعوا إليهم أحداً ، واحذروهم على أشرافكم ، ولكن اكتموا عني ولا تذكروا من هذا حرفاً قالوا لا نذكره ، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان إني رجل منكم فاكتموا عني واعلموا أن قريظة بعثوا إلى محمد وقال لهم مثل ما قال لقريش فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحداً من رجالكم ، وكان رجلاً منهم فصدقوه[3] .

وأرسلت اليهود عزال بن سموأل إلى أبي سفيان بن حرب وأشراف قريش إن ثواءكم[4] قد طال ، ولم تصنعوا شيئاً ، وليس الذي تصنعون برأي ، إنكم لو وعدتمونا يوماً تزحفون فيه إلى محمد فتأتون من وجه وتأتي غطفان من وجه ونخرج نحن من وجه آخر لم يفلت من بعضنا .

---

(١) اجلبوا: توعدوا بشر وأجلب على فرسه صاح . القاموس ، ١/ ٤٧ .
(٢) يشير إلى أنهم أهل حلقة وسلاح .
(٣) مغازي الواقدي ، ٢/ ٤٨١ - ٤٨٢ .
(٤) طال ثواءنا: أي طال مقامنا .

ولكن لا نخرج معكم حتى ترسلوا إلينا بِرهَان [1] من أشرافكم يكونون عندنا فإنا نخاف إن مستكم الحرب وأصابكم ما تكرهونَ شمرتم وتركتمونا في عقر دارنا وقد نابذنا[2] محمداً بالعداوة ، فانصرف الرسول إلى بني قريظة ، ولم يرجعوا إليهم شيئاً ، وقال أبو سفيان هذا ما قال نعيم ، فخرج نعيم إلى بني قريظة فقال: "يا معشر بني قريظة أنا عند أبي سفيان حتى جاء رسولكم إليه يطلب منه الرهائن فلم يرد عليه شيئاً فلما ولى قال لو طلبوا مني عناقاً[3] ما رهنتها ، أنا أرهنهم سراة أصحابي يدفعونهم إلى محمد يقتلهم ، فارتأوا آراءكم حتى تأخذوا الرهن فإنكم إن لم تقاتلوا محمداً" وانصرف أبو سفيان تكونوا على مواعدتكم الأولى . قالوا نرجو ذلك يا نعيم؟ قال نعم قال كعب بن أسد فإنا لا نقاتله والله لقد كنت لهذا كارهاً ، ولكن حيي رجل مشؤوم".

قال الزبير بن باطا: "إنْ انكشفت قريش وغطفان عن محمد لم يقبل منا إلا السيف ، قال نعيم لا تخش ذلك يا أبا عبد الرحمن . قال الزبير بلى والتوراة ، ولو أصابت اليهود رأيها ، ولِمَ الأمر ، لتخرجن إلى محمد ولا يطلبون من قريش رهناً فإن قريشاً لا تعطينا رهنا أبداً . وعلى أي وجه تعطينا قريش الرهن وعددهم أكثر من عددنا ومعهم كراع ولا كراع معنا وهم يقدرون على الهرب ونحن لا نقدر عليه؟ وهذه غطفان تطلب إلى محمد أن يعطيها بعض تمر الأوس وتنصرف فأبى محمد إلا السيف فهم ينصرفون بغير شيء"[4] .

فلما كانت ليلة السبت كان مما صنع الله تعالى لنبيه أن قال أبو سفيان يا معشر قريش إن الجناب . قد أجدب ، وهلك الكراع ، والخف ، وغدرت اليهود ، وكذبت وليس هذا بحين مقام فانصرفوا ، قالت قريش فاعلم علم اليهود ، واستيقن خبرهم ، فبعثوا عكرمة بن أبي جهل حتى جاء بني قريظة عند غروب الشمس مساء ليلة السبت فقال: "يا معشر اليهود إنه قد طال المكث وجهد الخف والكراع وأجدب الجناب وإنا لسنا بدار مقامه . اخرجوا إلى هذا الرجل حتى نناجزه بالغداة ، قالوا غداً السبت لا نقاتل ولا نعمل فيه عملاً ، وإنا مع ذلك لا نقاتل معكم إذا انقضى سبتنا حتى تعطونا رهاناً من رجالكم يكونون معنا لئلا

---

(١) برهان: بكسر المعجمة فما بعدها من الرهن .

(٢) نابذنا: نبذ العهد إذا نقضه وألقاه إلى من كان بينه وبينه . النهاية ، ٥/ ٧ .

(٣) العتاق: الأنثى من أولاد المعز .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٤٨٢ .

تبرحوا حتى نناجز محمداً. فإنا نخشى إن أصابتكم الحرب أن تشمروا إلى بلادكم وتدعونا وإياه في بلادنا ولا طاقة لنا به، معنا الذراري والنساء والأموال فرجع عكرمة إلى أبي سفيان فقالوا ما وراءك؟ قال أحلف بالله أن الخبر الذي جاء به نعيم حق لقد غدر أعداء الله، وأرسلت غطفان إليهم مسعود بن رخيلة في رجال منهم بمثل رسالة أبي سفيان فأجابوهم بمثل جواب أبي سفيان".

وقالت اليهود حيث رأوا ما رأوا منهم نحلف بالله إن الخبر الذي قال نعيم لحق، وعرفوا أن قريشاً لا تقيم فسُقِطَ في أيديهم.

فكر أبو سفيان إليهم وقال: "إنا والله لا نفعل إن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا"، فقالت اليهود مثل قولهم الأول وجعلت اليهود تقول الخبر ما قال نعيم وجعلت قريش وغطفان تقول الخبر ما قال نعيم، ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء واختلف أمرهم، فكان نعيم يقول أنا خذلت بين الأحزاب حتى تفرقوا في كل وجه وأنا أمين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سره فكان صحيح الإسلام بعد[1].

حصول النزاع بين الأحزاب وانهزامهم:

لقد اشتد الكرب على المسلمين بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديدًا، فما كان من المسلمين إلا أن توجهوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: نعم. اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا[2]. وجاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأحزاب فقال: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»[3]، فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقبلت بشائر الفرج فقد صرفهم الله بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم وقلوبهم، وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم، وأنزل جنودًا من عنده سبحانه، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٩].

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٨٢.

(٢) مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (٤/ ١٨).

(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب (٥/ ٥٩) رقم ٤١١٤.

ويعني القرآن الكريم بالجنود الذين جاءوا لحرب المسلمين قريش، وغطفان، وبني قريظة، أما الجنود الذي أشار القرآن إلى أن الله أرسلهم لإزعاج الأحزاب فقد ذكر كثير من أهل المغازي والتفاسير أنهم (الملائكة)، ولم يثبت أنهم قاتلوا الأحزاب، ولكنهم أرسلوا للإزعاج والتضييق[1]. لذلك روى البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**»[2].

وقد أخرج ابن سعد عن سعيد بن جبير قال: "لما كان يوم الخندق أتى جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومعه الريح فقال حين أتى جبريل: "ألا أبشروا ثلاثاً"، فأرسل الله عليهم الريح فهتكت القباب، وكفأت القدور، ودفنت الرحال[3]، وقطعت الأوتاد، فانطلقوا لا يلوي أحد على أحد فأنزل الله تعالى: ": ﴿**إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا**﴾[4].

وهكذا يتبين أن لله سبحانه وتعالى جنوداً أقوياء: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**﴾، فقد سلط الله سبحانه هذا النوع من جنده فزلزلت الأعداء، وأزعجهم هذا الوضع وخاصة بعد أن حصل ما حصل من التخذيل بينهم وبين حلفائهم اليهود، وظن بعضهم ببعض سوءاً. ووصل الخلاف والتنافر بين الفريقين إلى درجة أصبح الحلف العسكري المعقود بينهما في حكم المنتهي وصار كل فريق يحمل الآخر مسؤولية انفصام عرى هذا الحلف.

عندئذ سلط الله عليهم القوة الإلهية. وقد فكرت عندئذ القيادة المشتركة للأحزاب في إنهاء الحصار المضروب على المدينة، والرجوع بجيوشها كلٌ إلى بلاده، وترك اليهود وشأنهم ليلقوا مصيرهم الرهيب، وفي النهاية وعندما أذن الله وأراد نصر أوليائه هبت على المنطقة التي يعسكر فيها الأحزاب رياح قوية كانت لقوتها تقتلع الخيام وتهد الأبنية وتكفأ القدور، ولا تترك ناراً تشتعل مما جعل أبو سفيان يقول: "يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام فقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما

(١) محمد باشميل، غزوة الأحزاب، ٢٧٨.
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٤٧، صحيح مسلم ٢/ ٦١٧، مسند الإمام أحمد ١/ ٢٢٣، ٣٢٤، ٣٤١، ٣٥٥، ٣٧٣.
(٣) الرحال: جمع رحل وهو مركب يوضع على ظهر البعير. القاموس ٣/ ٣٨٣.
(٤) الطبقات الكبرى، ٢/ ٧١.

ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل"[1].

وقد بلغ من خوف القوم عندما توالت عليهم عوامل الهزيمة أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم - ليتعرف كل منكم أخاه وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو.

وقد حل عقال بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل، فقال له صفوان بن أمية إنك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضي، فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل وترك خالد بن الوليد في جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم، وأزاح الله عن المسلمين تلك الغمة، ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منّة منه وفضلاً لساءت الحال وكان جلاء الأحزاب في ذي القعدة[2].

ولما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتابع أمر الأحزاب، فإنه أراد أن يتحرى عما حدث عن قرب، ولما كانت هذه المهمة في غاية الخطورة والمغامرة فقد اختار لها من يناسبها ووقع اختياره علي حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد قام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدور استكشاف خطير، ودخل في وسط الصفوف صفوف الأعداء رغم احتراسهم وحراسهم المليئة قلوبهم بالحقد على المسلمين وخاصة بعد أن قتل بعض صناديدهم ورغم الظروف الخطيرة التي كانت تحيط به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد ذهب في رعاية الله وحفظه ودعا له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحفظ من بين يديه ومن خلفه واستجاب الله دعاء نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ودخل حذيفة مع الأعداء وتوغل في صفوفهم حتى أشرف على القائد أبي سفيان، وحفظه الله ورجع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأخبارهم ورحيلهم.

روى عن حذيفة قال: "لقد رأيتنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر[3]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد فقال: «**قم يا حذيفة فاتنا بخبر القوم**». فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن

(١) الاكتفاء، ٢/ ١٧٥.
(٢) نور اليقين، ١٥٥.
(٣) القر: هو البرد الشديد.

أقوم، قال: «**اذهب فاتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ**»[1]، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يُصْلَيْ ظهره[2] بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس[3] فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**ولا تذعرهم عليّ**» ولو رميته لأصبته فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قررت[4]، فألبسني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائماً حتى أصبحت[5] فلما أصبحت قال: «**قم يا نومان**»[6][7].

وفي رواية البزار" قال حذيفة: "إن الناس تفرقوا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الأحزاب فلم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً، فأتاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا جاثم"[8] من النوم فقال: يا ابن اليمان: «**قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب فانظر إلى حالهم**». قلت: "يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما قمت إليك إلا حياءً من البرد. قال: «**انطلق يا ابن اليمان فلا بأس عليك من برد ولا حر حتى ترجع إليّ**». قال فانطلقت حتى آتيت عسكرهم فوجدت أبا سفيان يوقد النار في عصبة حوله وقد تفرق الأحزاب عنه، فجئت حتى أجلس فيهم فحس أبو سفيان أنه قد دخل فيهم من غيرهم، فقال ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه قال فضربت بيدي على الذي عن يميني فأخذت بيده، ثم ضربت بيدي على الذي عن يساري فأخذت بيده فلبثت فيهم هنيهة ثم قمت فأتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قائم يصلي فأومئ إلي أن ادنو فدنوت حتى أرسل علي من الثوب الذي كان عليه ليدفئني، فلما فرغ من صلاته قال: «**يا ابن اليمان اقعد ما خبر القوم؟**» قلت: يا رسول الله: "تفرق الناس عن أبي سفيان فلم يبق إلا في عصبة يوقد النار وقد

---

(١) ولا تذعرهم علي: أي لا تفزعهم على ولا تحركهم علي وقيل معناه لا تنفرهم والمراد لا تحركهم عليك فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضرراً علي لأنك رسولي وصاحبي (من صحيح مسلم) ٣/ ١٤١٤ هامش الصفحة.

(٢) يصلى ظهره: يدفئه.

(٣) كبد القوس: مقبضها وكبد كل شيء وسطه كما في القاموس ٧/ ٣٣٢.

(٤) قررت: أي بردت.

(٥) أصبحت: أي طلع الفجر.

(٦) نومان: كثير النوم.

(٧) صحيح مسلم ٣/ ١٤١٤ - ١٤١٥.

(٨) جاثم: جثم لزم مكانه فلم يبرح. القاموس ٤/ ٨٧ وعند البيهقي جاثي.

صب الله عليهم من البرد مثل الذي صب علينا ولكنا نرجو من الله ما لا يرجون" أ: هـ[1].

وهكذا نفذ حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما أمره به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي مهمة شاقة ولكن دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له كان من الأسباب التي جعلته ينجح في تلك المهمة رغم ما صادف من مآزق وأهم مأزق واجهه عندما قال أبو سفيان لينظر امرؤ من جليسه، وهو تحفظ من أبي سفيان خوفاً من أن يكون داخل المعسكر أحد يتجسس لحساب المسلمين[2] ولكنه لذكائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تخلص من هذا المأزق حيث سارع إلى الرجل الذي بجانبه وبدأه بالسؤال قائلاً من أنت؟.

وبهذا العمل تمكن حذيفة من الخروج من المأزق الذي وقع فيه والذي كاد أن يوقعه في قبضة المشركين لو انكشف أمره[3]، ثم سلط الله عليهم تلك الريح الهوجاء وأرسل عليهم ملائكته فزلزلتهم وجعلتهم يرتحلون، وفرق الله جمعهم وخذلهم وكفى الله المؤمنين شرهم: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

حقيقة أنها نعمة، وأيما نعمة! حيث انقشعت الغمة، وخلص الله المسلمين من براثن المحنة، وقطف المؤمنون الصادقون ثمار صدقهم، وصبرهم، وثباتهم، مع نبيهم الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك الليالي الرهيبة، المرعبة، التي زاغت فيها الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، فقد أخذت جيوش الأحزاب في فك الحصار عن المدينة.

وأخذت كتائبهم تولي الأدبار تجر أذيال الخيبة والخسران لم تجن من غزوها الكبير هذا سوى التعب والنصب[4]: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]

لقد كفى الله المؤمنين القتال، ونصر عبده، وأعز جنده؛ ولهذا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز**

(١) رواه البزار في مسنده، ٧/ ٣٤٧، والحاكم في مستدركه، ٣/ ٣٣ ح٤٣٢٥، والبيهقي، دلائل النبوة ٣/ ٤٥٤.
(٢) غزوة الأحزاب لباشميل، ٢٦٥.
(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٦٥٣.
(٤) محمد باشميل، غزوة الأحزاب، ٢٦٧.

جنده، وهزم الأحزاب وحده»[1].

وهكذا حصل حيث أن المشركين لم يغزوا المسلمين بعدها بل غزاهم المسلمون في بلادهم، فعن سليمان بن صرد قال: "قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الأحزاب": «نغزوهم ولا يغزوننا»[2].

قال ابن إسحاق: "لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما بلغنا "لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم". فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله تعالى مكة كما رواه الطبراني[3].

وذلك يعكس التغير الجذري في سياسة الدولة الإسلامية من اتباع سياسة الدفاع عن المدينة، إلى مرحلة الهجوم والتهديد، وذلك يشير بوضوح إلى أن مناطق الصراع قد انتقلت في أعقاب هذه الغزوة إلى مناطق أخرى مثل مكة وما حولها، وتبوك، وغيرهما بعيدا عن المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية.

وإخبار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنهم - أي الأحزاب - أو كفار قريش لا يغزوا المسلمين بعد هذه الغزوة علم من أعلام نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث حصل ذلك حتى فتح مكة تلك التي أخرجه كفارها في بداية ظهور الإسلام، وخرج منها خائفاً يترقب، ولكنه بقوة الله وتأييده رجع إليها فاتحاً رافعاً راية التوحيد، حامداً ربه شاكراً له.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب ورد الأمر كله لله سبحانه، وقد سجل القرآن الكريم غزوتي الأحزاب وقريظة، والقرآن كعهدنا به يسجل الخالدات التي تسع الزمان والمكان، فالمسلمون معرضون دائمًا لأن يغزوا في عقر دارهم وفي عواصم بلدانهم، ومعرضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعًا، فأن يسجل القرآن حادثتي الأحزاب وقريظة فذلك من سمة التكرار على مدى العصور؛ لكي يستفيد المسلمون من الدروس والعبر من الحوادث السابقة التي

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٤٩ كتاب الجهاد، صحيح مسلم ٢/ ٩٨٠ كتاب الحج باب ما يقوله إذا قفل من سفر الحج وغيره، سنن أبي داود ٣/ ٢١٤ كتاب الجهاد، سنن النسائي القسامة ٣٤، سنن ابن ماجة ٢/ ٨٧٨ كتاب الديات، موطأ مالك ٢٤٣، مسند الإمام أحمد ١/ ٤٤٤، ٢/ ٥، ١٠، ١١، ١٥، ٢١، ٣٨، ٦٣، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٧.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٤٨، مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٦٢.

(٣) صحيح البخاري ٥/ ٤٨، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٧، المعجم الكبير ٧/ ١١٥، مجمع الزوائد ٦/ ١٣٩.

ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص، فلقد ذكر الله المؤمنين بنعمه عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وصور ما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠].

وكشف عن نوايا المنافقين السيئة، وأخلاقهم الذميمة، وجبنهم الخالع، ومعاذيرهم الباطلة، ونقضهم للعهود، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢)، وحض المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أقواله وأفعاله، وجهاده وكل أحواله استجابة لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] ومدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادق ووفاء بعهد الله تعالى، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣] وبين سبحانه أن من سننه التي لا تتخلف، هي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وأوضح سبحانه امتنانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة، وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر، حيث ألقى سبحانه الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا - وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧][1].

الأحكام والفوائد والعبر المستنبطة من هذه الغزوة:

١ - الشورى:

الشورى في الإسلام مبدأ من مبادئ نظام الحكم الإسلامي، وعليه المعول

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول، (٢/ ٤٩٠، ٤٩١).

عندما لا يوجد دليل من الكتاب أو السنة يحتم الأخذ بشيء معين .

وقد شاور الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه كثيراً ، كما فعل ذلك الخلفاء الراشدون بعده ، وفي غزوة الخندق حصلت المشاورة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه حول خطة الدفاع التي يتخذونها حيال الجموع الزاحف صوب المدينة ، التي جاءت من بلادها عاقدة النية استئصال هذا الدين الحنيف الذي أصبح يهدد كيانهم ويبدد أصنامهم .

وقد أشار عليه سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحفر الخندق وذلك لإقتناعه بأنها خطة عظيمة جيدة في هذا الظرف الخطير ؛ والوقت القصير ؛ ولأنها قد نفذت في بلاد فارس ونفعت .

واقتنع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الرأي السديد ، وسارع إلى تنفيذه ، وسارع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذا العمل العظيم ، وأنجزوه في مدة وجيزة حيث لا تستطيع الآلات الحديثة في هذا العصر المتطور مادياً أن تفعل فعلهم إذا أخذنا في الحسبان أنهم حفروا من طرف الحرة الغربية[1] الشرقي إلى طرف الحرة الشرقية[2] الغربي .

علماً بأن الحفر واسع وعميق بحيث لم تستطع الخيل اقتحامه مما يدل دلالة واضحة على عِظمه واتساعه ، وما ذلك إلا بقدرة الله وقوته وتوفيقه لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] .

٢ - مشروعية جعل الإمام من ينوب عنه أثناء غيابه في قتال أو غيره .

وهذا مبدأ إسلامي مشروع شرعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عهده فالاقتداء به في ذلك مشروع .

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل غزوة ، وفي كل سفر يعزم عليه يعين نائباً على المدينة يقوم بالصلاة بأهلها ممن تخلفوا عن القتال لعجز ، أو إعالة ضعفاء ، أو تمريض مرضى ، وغير ذلك من رعاية شئون أهل المدينة .

وفي هذه الغزوة عين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن أم مكتوم [3] .

---

(١) الحرة الغربية وتسمى - حرة الوبرة - .

(٢) وتسمى حرة واقم لكنهم بدؤوا من طرف حرة بني حارثة .

(٣) تهذيب التهذيب ٨/ ٣٤ ، أسد الغابة ٤/ ١٠٣ .

٣ - التواضع في الإسلام:

مبدأ شرعي من مبادئ هذا الدين الحنيف وخلق كريم، ولقد وقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم عرفة في حجته التي تسمى حجة الوداع وقال: "يأيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. أبلغت..."[1].

الحديث، من هذا المنطلق يتبين أن التواضع من الرئيس لمرؤوسيه؛ ومن الكبير للصغير، بل التواضع من كل أحد مما دعا إليه الإسلام وقد فعل ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطبق بنفسه هذا المبدأ العظيم.

حيث باشر بنفسه في هذه الغزوة حفر الخندق، ونقل التراب وقد روى البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعل ذلك حتى اغبر بطنه.

وما ذلك إلا لمعرفته بالله، وتواضعه لمن شرح صدره، ووضع وزره ورفع ذكره، حيث لا يذكر الله إلا ويذكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وتواضعه يتجلى دائماً بين أصحابه سواء في الحرب أو في السلم وسنته مليئة بمثل ذلك.

٤ - المبارزة:

وهي ملاقاة الند[2] من المشركين أمام الصفوف واحداً لواحد.

وقد حصل في هذه الغزوة المباركة لقاء هام بين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين أعتى أعداء الله عمرو بن عبد ود حتى إن المؤرخين أثبتوا جميعاً بأنه فارس قريش وأحد شجعانها المبرزين.

٥ - بيع جيفة الكافر جوازها وعدمه:

وقد جاء في كتب الحديث ما يمنع ذلك فقد عنون البخاري بقوله: باب (طرح جيف المشركين في البئر ولا يؤخذ لهم ثمن) وفي ذلك دليل على أنه لا يجوز بيع جيفة المشرك قال المباركفوري: وإنما لا يجوز بيعها وأخذ الثمن فيها لأنها ميتة لا يجوز تملكها ولا أخذ عوض عنها وقد حرم الشارع ثمنها وثمن الأصنام[3].

٦ - لا يعدل عن الوضوء إلى التيمم مع وجود الماء:

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/ ٤١١ وقد جاء في صحيح مسلم ٤/ ٢١٩٩ أن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد. الحديث.

(٢) الند: بالكسر المثل وبالفتح الطيب. القاموس ١/ ٣٤١.

(٣) تحفة الأحوذي ٥/ ٣٧٦.

أي أن الوضوء قد أوجبه الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يترك الوضوء حتى في أثناء الحروب ذلك لأنه لما كان في هذه الغزوة وفاتته صلاته العصر كما مر في الأحاديث الصحيحة وفي بعضها أنه فاتته الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

عمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندئذ إلى بطحان[1] ليتوضأ، وترك التيمم مع أنه في وقت حرب وأوضاع حرجة؛ ولأنه هو المشرع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولوجود الماء قريباً منه لم يترك الوضوء لما فيه من الأجر العظيم لذلك روى البخاري حيث قال في حديث تقدم وشاهدنا منه هو:

قال عمر بن الخطاب يا رسول الله ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والله: «**ما صليتها**» فنزلنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطحان فتوضأنا لها. الحديث[2].

٧ - الخديعة في الحرب:

قال الحافظ: "وأصل الخداع إظهار أمر وإضمار خلافه"[3].

وقد روي البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سمى الحرب خدعة**»[4].

واتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب كيف أمكن الخداع، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل"[5].

وقد فعل ذلك نعيم بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الخندق حيث أنه كان قد أسلم ولم يعلم به قومه فذهب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبره بإسلامه وأن قومه لا يعلمون بذلك.

وأراد مساعدة المسلمين فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما أنت فينا رجل واحد

---

(١) أحد أودية المدينة المشهورة.
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٤٧.
(٣) انظر فتح الباري ١/ ٢٣٢.
(٤) صحيح البخاري ٤/ ٢٤ كتاب الجهاد.
(٥) صحيح مسلم ٣/ ١٣٦٢ كتاب الجهاد.

فخذل عنا ما استطعت، فذهب لتوه إلى بني قريظة فقريش فغطفان وخذلهم الله وفرق جمعهم وشتت شملهم وكان نعيم سبباً هاماً في ذلك.

٨ - مشروعية إرسال العيون لأخذ أخبار الأعداء:

من هذا المنطلق فقد بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليلة الأحزاب ليأتيه بأخبار تلك الجموع التي حاولت جاهدة في حرب المسلمين وإيذائهم.

وقد قام حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمهمة خير قيام، حيث ذهب إليهم، وجلس بينهم، وسمع ما يدور في معسكرهم، وقد كان على مسافة قريبة من القائد أبي سفيان وأراد أن يرميه فتذكر تحذير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له من ذلك «**ولا تذعرهم عليّ**»[1]. فعاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحمل أخباراً سارة وبشرى هامة هي رحيلهم، وانكشافهم عن المدينة التي ضاقت بهم ذرعاً: ﴿**وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ**﴾ [الأحزاب: ٢٥].

من هنا يؤخذ، جواز استعمال العيون، وإرسالها للتعرف على حالة الأعداء، ومدى استعدادهم، وكيفية تحركاتهم، حتى يكون المسلمون على علم بأعدائهم فيعد المسلمون لكل أمر عدته ولا ينبغي للمسلمين أن يغفلوا عن تحركات أعدائهم وما يكيدونه للإسلام وأهله.

٩ - استعراض الإمام للجيش قبل وقوع القتال كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه الحديث.

وقد وقع هذا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بدر وغيرها. وخروج صغيري السن لم يحدث إلا عند أولئك الذين يستشعرون قيمة الشهادة وتهون أنفسهم في سبيل الله طمعاً فيما عنده من مغفرة ورضوان.

فعن ابن عمر قال: "عرضت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الخندق فلم يجزني ولم يرني بلغت[2]".

وفي الحديث أيضاً من العبر: حسن أخلاقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعرفته التامة بأحوال أصحابه واحترامه لهم ولأبنائهم رغم عظم الرسالة والأعباء التي حملها

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٤١٤ - ١٤١٥.
(٢) فتح الباري ٥/ ٢٧٩.

ولا غَرْوَ فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا»[1]".

١٠ - تعاون الجميع إذا هوجمت البلاد:

وهناك أحاديث صحيحة تبين بوضوح مباشرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحفر ونقل التراب مع صحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من ذلك ما روي البخاري ونصه:

عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو إغبر بطنه[2]. يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ::: ولا تصدقنا ولا صلينا
إن الأُلى قد بغوا علينا ::: وثبت الأقدام إن لاقينا
فأنزلن سكينة علينا ::: إذا أرادوا فتنة أبينا

قال البراء: "ويرفع بها صوته أبينا أبينا"[3].

وهذا يدل بجلاء على مشاركته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم وعلى تواضعه وقد جاء عند أحمد عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "ما نسيت قوله يوم الخندق وهو يعاطيهم اللبن وقد أغبر شعر صدره وهو يقول: «اللهم إن الخير خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»[4].

وفي هذا من العبر والدروس الشيء الكثير منها:

١ - القدوة في ذلك.

٢ - مباشرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحفر بنفسه تحريضاً للمسلمين على العمل ليتأسوا به في ذلك، وحتى يبتعدوا عن الاتكالية وما يعقبها من تبعات.

٣ - فيهما إشارة إلى تحقير عيش الدنيا مهما بلغ لما يعرض له من التكدير وسرعة الفناء: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ

---

(١) رواه الترمذي في البر ١٥، وأحمد ١/ ٢٥٧، ٢/ ٢٠٧.
(٢) والمعنى وارى التراب جلدة بطنه. الفتح، ٧/ ٣٩٩.
(٣) فيه دليل على تواضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانشراح صدره ومجاراته لأصحابه فيما هو حلال وطيب. وانظر أيضاً: صحيح مسلم ٣/ ١٤٣٠ باب غزوة الأحزاب وهي الخندق. ومسند الإمام أحمد ٤/ ٢٨٢/ ٢٨٥ - ٢٩١/ ٣٠٠/ ٣٠٢/ ٣٠٣، وسنن الدارمي ٢/ ٢٢١، والمسند ١/ ٢٢٧ رقم (٣١٧).
(٤) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٨٩.

الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤].

٤ - ترديده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض الكلمات إجابة لأصحابه لما كانوا يقولونه أثناء الحفر وذلك مما ينشط حيث إن الإنسان إذا اشتغل في عمل جسماني شاق فالسكوت يشق عليه ويتعب بسرعة أكثر مما لو كان يتكلم حيث ينسيه الكلام التعب وهذا مجرب.

٥ - ملاطفته لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهو الموصوف بقول ربه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. حيث كان أصحابه يرتجزون أثناء الحفر برجل من المسلمين يقال له جعيل[1] فسماه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرا فكانوا يقولون:

سماه من بعد جعيل عمرا ::: وكان للبائس يوماً ظهرا

فإذا مروا بعمرو قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عمراً وإذا مروا بظهر قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهرا.

١١ - من المعجزات التي حصلت في هذه الغزوة:

الكدية والطعام المبارك فيؤخذ منه:

١ - طاعتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحافظتهم على ذلك بدليل أنهم لما صادفوا تلك العقبة لم يتصرفوا حسب أرائهم بل رجعوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك ونتيجة لتلك الطاعة أعانهم الله عز وجل على تلك العقبات فأنجزوا ذلك العمل في وقت وجيز.

٢ - حبهم الشديد لله، ولرسوله، وشفقتهم على بعضهم: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ذلك أنه حينما رأى جابر ما يعانيه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الجوع استأذن وعاد أدراجه إلى بيته ليجهز ما يستطيع عليه من طعام يدعو إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثلة من أصحابه وفعلاً وجد عناقاً وصاعاً من شعير فذبح العناق، وطحنت زوجته صاع الشعير وجهزوه وعاد جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاء به ومن معه ضيفاً على تلك المأدبة المتواضعة.

٣ - تكثير الطعام الذي خجل[2] جابر من قلته فأكل الجميع وشبعوا وذلك بفضل الله على نبيه وإظهاره على يديه تلك المعجزات الباهرة.

٤ - تواضعه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لربه ولأصحابه حيث كان يغرف بنفسه

(١) انظر أسد الغابة ١/ ٢٩٠، وحلية الأولياء ١/ ٣٥٣ رقم الترجمة (٥٥).
(٢) الخجل: التحير والدهش من الاستحياء. مختار الصحاح، ص ١٧٠.

اللحم، ويكسر لهم الخبز حتى صدروا عنه.

٥ - الإهداء للجيران من الطعام سنة، وخاصة في أوقات المجاعة وقد أوصى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك كما في حديث أبي ذر[١]. حيث قال: إن خليلي أوصاني: «**إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف**».

١٢ - أهمية الصلاة:

وفيه حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يا رسول الله ما كدت أن أصلي العصر حتى كادت الشمس أن تغرب فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما صليتها**» قال: فقمنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها وصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب"[٢]. وفيه من الفوائد:

١ - جواز اليمين من غير استحلاف إذا اقتضت مصلحة من زيادة طمأنينة أو نفي توهم.

٢ - استحباب قضاء الفوائت في جماعة وبه قال أكثر أهل العلم إلا الليث مع أنه أجاز صلاة الجمعة جماعة إذا فاتت.

٣ - استدل به على عدم مشروعية الأذان للفائتة.

١٣ - كثرة جند الله:

وفيه حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (نصرت بالصبا) وفيه:

١ - تفضيل بعض المخلوقات على بعض.

٢ - إخبار المرء عن نفسه بما فضله الله به على سبيل التحدث بالنعمة، وبيان المنزلة لا على الفخر.

٣ - الإخبار عن الأمم الماضية وكيفية هلاكها.

٤ - الصبا هي أفضل الرياح التي تهب حيث أنها بفضل الله مبشرة بالخير، ويستفيد منها الزرع بخلاف غيرها من الرياح فمثلاً الرياح الشمالية إذا هبت تميت المزروعات غالباً وهذا ما جربه الفلاحون.

١٤ - أهمية الدعاء:

---

(١) صحيح مسلم، ٤/ ٢٠٢٥.
(٢) صحيح البخاري، ٥/ ٩٢.

وفيه حديث عبد الله ابن أبي أوفى "اللهم منزل الكتاب" ومن الفوائد ما ذكره الحافظ: أن فيه التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث: إنزال الكتاب - إجراء السحاب - هزيمة الأحزاب. وفيه استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار.

ووصية المقاتلين بما فيه صلاح أمرهم، وتعليمهم ما يحتاجون إليه، وسؤال الله تعالى بصفاته الحسنى وبنعمه السابغة ومراعاة نشاط النفوس لفعل الطاعة والحث على سلوك الأدب وغير ذلك[1].

وفيه حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً" الحديث[2].

قال الحافظ: "وفيه الدعاء عليهم بأن يملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، وليس فيه الدعاء عليهم بالهزيمة لكن يؤخذ من لفظ الزلزلة لأن في إحراق بيوتهم غاية التزلزل لنفوسهم".

وقال: "وفيه جواز الدعاء على المشركين بمثل ذلك".

كما تضمن كذلك دعاء صدر من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من يستحقه وهو من مات مشركاً منهم. وفيه شدة حرص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أداء الصلوات وخاصة صلاة العصر والتي قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تاركها: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**»[3].

والذي يقارن بين أرقام المسلمين في أي معركة وبين أرقام المشركين يجد دائماً أن المشركين أكثر من المسلمين أضعافاً مضاعفة ومع ذلك فقد كان النصر حليف المسلمين رغم ذلك كله[4].

وأخيراً يتبين من مجريات الأمور والأحداث في هذه الغزوة وغيرها من الغزوات أن النصر في المعارك لا يكون بكثرة العدد ووفرة السلاح وإنما يكون بقوة الروح المعنوية لدى الجيش.

وقد كان الجيش الإسلامي في هذه المعارك يمثل العقيدة النقية والإيمان

---

(١) فتح الباري ٦/ ١٥٧.

(٢) انظر الحديث في الصحيح ٥/ ٤٧.

(٣) فتح الباري ٦/ ١٠٦، وقد أخرجه البخاري في المواقيت حديث رقم (٥٥٣، ٥٩٤) والنسائي في الصلاة.

(٤) إبراهيم بن محمد المدخلي، مرويات غزوة الخندق، ص ٤١٧ - ٤٢٣.

الصادق والفرح بالاستشهاد والرغبة في ثواب الله وجنته .

كما يمثل الفرحة من الانعتاق من الضلال والفرقة والفساد . بينما كان جيش المشركين يمثل فساد العقيدة وتفسخ الأخلاق ، وتفكك الروابط الاجتماعية ، والانغماس في الملذات .

والعصبية العمياء للتقاليد البالية والآباء الماضين والآلهة المزيفة انظر إلى ما كان يفعله الجيشان قبل بدء القتال .

فقد حرص المشركون قبل بدء معركة بدر مثلاً على أن يقيموا ثلاثة أيام يشربون فيها الخمور ، وتغني لهم القيان ، وتضرب لهم الدفوف ، وتشعل عندهم النيران لتسمع العرب بما فعلوا فتهابهم .

وكانوا يظنون ذلك سبيلاً إلى النصر ، بينما كان المسلمون قبل بدء أي معركة يتجهون إلى الله بقلوبهم يسألونه النصر ، ويرجونه الشهادة ، ويشمون روائح الجنة ويخر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجداً مبتهلاً يسأل ربه أن ينصر عباده المؤمنين ، وقد ابتهل كثيراً في هذه الغزوة ودعا الله حتى نصره وكانت النتيجة أن انتصر الأتقياء الخاشعون وانهزم اللاهون العابثون[1] .

غزوة بني قريظة:

كان نقض بني قريظة لوثيقة العهد التي أبرموها مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند حصار قوات الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق وإصرارهم على خيانة الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين ، وتعريضهم أمن وسلامة المسلمين ودولتهم للخطر ، السبب في هذه الغزوة ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتالهم بعد انسحاب الأحزاب وانتهاء الحصار والخطر وعودته بالمسلمين من الخندق ووضعهم السلاح [2] .

ففي اليوم الذي رجع فيه رسول الله إلى المدينة ، جاءه جبريل عند الظهر ، وهو يغتسل في بيت أم سلمة ، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، فانهض بمن معك إلى بني قريظة ، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم ، وأقذف في قلوبهم الرعب ، فسار جبريل في موكبه من الملائكة ، وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤذناً فأذن في

(١) السيرة النبوية دروس وعبر ، ٢ / ١١٤ - ١١٥ .
(٢) البخاري - الصحيح ٣/ ٣٠٦ ، مسلم - الصحيح ٧/ ١٣٨ .

الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصَلِّينَّ العصر إلا ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطي الراية علي بن أبي طالب، وقدّمه إلى بني قريظة[1].

وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موكبه من المهاجرين والأنصار، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها: بئر أنّا. وبادر المسلمون إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، وتحركوا نحو قريظة، وأدركتهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا، حتى إن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفتين[2].

والحاصل أن الذين صلوا العصر في الطريق جمعوا بين الأدلة وفهموا المعنى فلهم الأجر مرتين والآخرين حافظوا على أمره الخاص فلهم الأجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعهم وأرضاهم.

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قدم علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة وابتدرها الناس وكان عدد من خرج إلى القتال ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثون فرسا فلما دنا علي كرم الله وجهه من الحصن[3] ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وغرز اللواء عند أصل الحصن سمع من بني قريظة مقالة قبيحة في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرجع حتى لقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالطريق فقال: يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث. قال: «لم؟ **أظنك سمعت لي منهم أذى**». قال: نعم يا رسول الله. قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا. فلما دنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حصونهم قال: «**يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟**» قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولا[4].

ومر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفر من أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بني قريظة فقال هل مر بكم أحد؟ قالوا يا رسول الله قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة. عليها قطيفة ديباج. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذلك جبريل بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف**

(١) الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، ٢/ ١١٢.
(٢) البخاري ومسلم.
(٣) حصن بن قريظة يبعد عن المدينة بنحو ميلين أو ثلاثة إلى الجنوب الشرقي.
(٤) علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ٢/ ٦٥٩.

الرعب في قلوبهم»[1].

وحاصرهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خمسا وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب[2]، وقد كان حيى بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه. فلما أيقنوا أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد لهم:

يامعشر اليهود انه قد نزل بكم من الأمر ما ترون واني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم: قالوا وماهن؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد كان تبين لكم أنه لنبي مرسل وأنه للذي كنتم تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ولانستبدل به غيره. قال فإذا أبيتم علي هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلا يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئا نخشى عليه وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء. قالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟

قال فإذا أبيتم هذه على فإن الليلة ليلة السبت وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه من المسخ مالم يخف عليك، قال ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما[3].

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أن ابعث الينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف وكان حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا. فأرسله رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم. وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال نعم. وأشار بيده إلى حلقه "أنه الذبح" قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ثم أنطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٣٥.
(٢) ابن سعد، الطبقات ٣/ ٧٤، ابن سيد الناس، عيون الأثر ٣/ ٦٨.
(٣) الروض الأنف، ٣/ ٤٣٧.

عمده[1] وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبدا. وقال لا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا. فلما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبره وأبطأ عليه وكان قد استبطأه قال: «**أما لو جاءني لاستغفرت له. فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه**» ثم أن توبة أبي لبابة أنزلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في بيت أم سلمة فبشرت أبا لبابة بذلك ثم أطلقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]

قال ابن إسحاق فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فتواثبت الأوس فقالوا يا رسول الله انهم موالينا دون الخزرج. وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع. وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه. فسأله اياهم عبد الله بن أبي ابن سلول فوهبهم له. فلما كلمه الأوس قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟**» قالوا: بلى. قال: «**فذاك إلى سعد بن معاذ**» وكان سعد بن معاذ قد جعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة في مسجده كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين. وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقومه حين أصابه السهم بالخندق: «**اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب**»[3].

وكان أبو لبابة بن عبد المنذر قد عرف حكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بني

---

(١) وتعرف بأسطوانة أبي لبابة واسطوانة التوبة.

(٢) قال ابن إسحاق: إن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السحر وهو في بيت أم سلمة. (فقالت أم سلمة): فسمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السحر وهو يضحك. قالت فقلت: مم تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنك؟ قال تيب على أبي لبابة، قالت قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال بلى، إن شئت. قال فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك. قالت فثار الناس إليه ليطلقوه فقال لا والله حتى يكون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي يطلقني بيده فلما مر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه. قال ابن هشام: أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع فيما حدثني بعض أهل العلم والآية التي نزلت في توبته قول الله عز وجل: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٣).

قريظة لأنه لما ذهب إليهم أشار بيده إلى حلقه "أنه الذبح" ثم ندم على هذه الإشارة واعتبرها خيانة الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان ما كان منه. أما سعد بن معاذ فقد كان حكمه في بني قريظة معروفا أيضا لأنه لما أصيب في غزوة الخندق قال: "اللهم لا تمتني حتى تقر عيني في بني قريظة"[1] وقد بقي مجروحا إلى أن استدعاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليحكم في بني قريظة فأتاه قومه فاحتملوه على حمار وأقبلوا معه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في موالـيك فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم. فلما أكثروا عليه. قال: لقد آن لسعد أن لاتأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التي سمع منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قوموا إلى سيدكم فانزلوه. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احكم فيهم. قال: فاني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى[2] ذراريهم وأن تقسم أموالهم. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله**»[3].

فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ان تكون النساء والذرية في دار ابنة الحارث امرأة من بني النجار وأمر بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد. ثم خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق فضرب أعناقهم في تلك الخنادق يخرج بهم إليها إرسالا وفيهم عدو الله حيى بن أخطب. وكعب بن أسد رأس القوم وهم ٦٠٠ أو ٧٠٠ وقيل أنهم كانوا من ٨٠٠ إلى ٩٠٠، وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارسالا: يا كعب ماترى ما يصنع بنا؟ فقال كعب: في كل موطن لا تعقلون. ألا ترون الداعي لا ينزع وانه من ذهب به منكم لا يرجع. هو والله القتل[4].

فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتى بحيى بن أخطب وعليه حلة له فقاحية[5] قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة

---

(١) تاريخ الطبري، ٢/ ٩٦.

(٢) تسبى: تؤسر، والسبي: الأسر.

(٣) البداية والنهاية، ٤/ ١٠٨، ابن القيم، زاد المعاد ٣/ ١١٧، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢/ ٥٤، وابن هشام ٢/ ٢٤٠.

(٤) تاريخ الطبري، ٢/ ١٠١.

(٥) فقاحية: قال ابن هشام: ضرب من الوشي، وقال الواقدي: حلة شقحية: اي حمراء (عن النهاية).

أثملة لئلا يسلبها . مجموعة يداه إلى عنقه بحبل . فلما نظر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قال: أما والله مالمت نفسي في عداوتك . ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس . فقال: أيها الناس لا بأس بأمر الله . كتاب الله وقدره وملحمة قد كتبت على بني اسرائيل . ثم جلس فضربت عنقه [1]

شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا:

وأقبل ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: هب [2] لي الزبير اليهودي أجزه فقد كانت له عندي يد يوم بعاث[3] ، فأعطاه إياه ، فأقبل ثابت حتى أتاه فقال: يا أبا عبدالرحمن ، هل تعرفني؟ فقال: نعم وهل ينكر الرجل أخاه قال ثابت: أردت أن أجزيك اليوم بيد لك عندي يوم بعاث ، قال: فافعل ، فإن الكريم يجزي الكريم ، قال: قد فعلت ، قد سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوهبك لي ، فأطلق عنه إساره ، فقال الزبير: ليس لي قائد وقد أخذتم امرأتي وابني ، فرجع ثابت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستوهبه امرأته وبنيه فوهبهم له ، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: رد إليك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امرأتك وبنيك ، فقال الزبير: حائط [4]لي فيه أغدق [5] ، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به ، فرجع ثابت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوهبه له ، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: قد رد إليك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهلك ومالك ، فأسلم تسلم ، قال: مافعل الجليسان؟ - يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة -؟ وذكر رجال قومه ، قال ثابت: قد قتلوا وفرغ منهم ، ولعل الله تبارك وتعالى أن يكون أبقاك لخير ، قال الزبير: أسألك بالله ياثابت وبيدي التي عندك يوم بعاث إلا ألحقتني بهم ، فليس في العيش خير بعدهم ، فذكر ذلك ثابت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمر بالزبير فقتل [6] .

وأتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكعب بن أسد مجموعة يداه إلى عنقه وكان

---

(١) تاريخ الطبري ، ٢/ ١٠١ .

(٢) الهبة: العطية الخالية من العوض والغرض .

(٣) وكان الزبير قد منَّ على ثابت في الجاهلية في يوم بعاث فأخذه وجز ناصيته ثم خلَّى سبيله ، ابن هشام ٢/ ٢٤٣ ، فأراد ثابت رضي الله عنه رد تلك الصنيعة للزبير .

(٤) الحائط: البستان أو الحديقة وحوله جدار .

(٥) الغدق: الماء الكثير . القاموس ١١٨٠ مادة (غدق) .

(٦) تاريخ الطبري ، ٢/ ١٠١ .

حسن الوجه، فقال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كعب بن أسد؟**» قال كعب: نعم يا أبا القاسم. قال: «**وما انتفعتم بنصح ابن خراش وكان مصدقا بي، أما أمركم باتباعي وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟**» قال: بلى والتوراة يا أبا القاسم ولولا أن تعيرني اليهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكني على دين اليهود. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قدمه فاضرب عنقه**». فقدمه فضرب عنقه[1].

وقتل من نساء بني قريظة امرأة واحدة لم يقتل من نسائهم غيرها، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة. قالت والله انها لعندي تحدث معي وتضحك ظهرا وبطنا ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها. أين فلانة؟ قالت وأنا والله. قلت ويلك مالك؟ قالت: أقتل. قلت ولم؟ قالت حدث أحدثته. قالت فانطلق بها فضربت عنقها. فكانت عائشة تقول: ما أنسى عجبا منها طيب نفس وكثرة ضحك وقد عرفت انها تقتل، وكانت طرحت رحى علي خلاد بن سويد فقتلته بارشاد زوجها لأنه أحب أن لا تبقى بعده فيتزوجها غيره ولم يقتل أحد من المسلمين في هذه الغزوة غير خلاد[2].

ثم أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجمع ما في حصونهم من الغنائم والحلقة والسلاح وغير ذلك فكانت من السيوف ألفاً وخمسمائة سيف، ومن الرماح ألفي رمح، ومن الدروع ثلاثمائة درع، ومن التروس ألفاً وخمسمائة ترساً وجحفة،

---

(١) المغازي للواقدي، ٢/ ٥١٦.

(٢) تاريخ الطبري، ٢/ ١٠١. وكانت هذه المرأة تحت الحكم القرظي فكان يحبها وتحبه، فلما اشتد عليهم الحصار بكت إليه وقالت: إنك لمفارقي. فقال: هو والتوراة ما ترين، وأنت امرأة فدلي عليهم هذه الرحى، فإنا لم نقتل منهم أحداً بعد، وأنت امرأة، وإن يظهر محمدٌ علينا لا يقتل النساء. وإنما كان يكره أن تسبى، فأحب أن تقتل بجرمها. وكانت في حصن الزبير بن باطا، فدلت رحى من فوق الحصن، وكان المسلمون ربما جلسوا تحت الحصن يستظلون في فيئه، فأطلعت الرحى، فلما رآها القوم انفضوا، وأصابت خلاد بن سويد فتشدخ رأسه، فحذر المسلمون أصل الحصن. فلما كان اليوم الذي أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقتلوا، دخلت على عائشة فجعلت تضحك ظهراً لبطن وهي تقول: سراة بني قريظة يقتلون! إذ سمعت صوت قائل يقول: يا نباتة. قالت: أنا والله التي أدعى. قالت عائشة: ولم؟ قالت: قتلني زوجي - وكانت جارية حلوة الكلام. فقالت عائشة: وكيف قتلك زوجك؟ قالت: كنت في حصن الزبير بن باطا، فأمرني فدليت رحىً على أصحاب محمد فشدخت رأس رجل منهم فمات وأنا أقتل به. فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها فقتلت بخلاد بن سويد. انظر: المغازي للواقدي، ٢/ ٥١٦.

كما تركوا عدداً كبيراً من الشياه والإبل وأثاثاً كثيراً وآنية كثيرة، ووجد المسلمون دناناً من الخمر، فوزعت الغنائم وهي الأموال المنقولة كالسلاح والأثاث وغيرها بين المحاربين من أنصار ومهاجرين ممن شهدوا الغزوة، فأعطى أربعة أخماس الغنائم لهم، إذ جعل للفرس سهمين، وللراجل سهماً، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم لهم ولفرسه، وغير الفارس يأخذ سهماً واحداً له، والخمس المتبقي هو سهم الله ورسوله المقرر في كتابه تعالى، وأما ماوجده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون من الخمر عند بني قريظة فقد أراقوه ولم يأخذوا منه شيئاً، ولم ينتفعوا به كذلك، وقد أسهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسويد بن خلاد الذي قتلته المرأة اليهودية بالرحى وأعطى سهمه لورثته، كما رضخ [1] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنساء اللواتي حضرن ولم يسهم لهن، منهن: صفية بنت عبدالمطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ، وأما الأموال غير المنقولة كالأراضي والديار فقد أعطاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمهاجرين دون الأنصار، وأمر المهاجرين أن يردوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيل وأرض، وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها، قال تعالى عن تلك الأراضي والديار: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، ثم بعث رسول الله سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل بسبايا [2] من سبايا بني قريظة إلى نجد فابتاع لهم منه خيلا وسلاحا واصطفى [3] لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن جنافة فكانت عند رسول الله حتى توفى عنها وهي في ملكه [4].

وفاة سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ::

كان سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أصيب في غزوة الأحزاب دعا الله عز وجل

---

(١) رضخ له: أعطاه شيئاً ليس بالكثير.

(٢) السبي: الأسرى.

(٣) فضَّل واختار.

(٤) وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب، قالت: يا رسول الله، بل تتركني في مالك فهو أخف عليك وعلي، فتركها وقد كانت حين سباها تعصت بالإسلام وأبت إلا اليهودية، فعزلها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووجد في نفسه لذلك من أمرها فبينما هو في مجلس مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: « إن هذا لثعلبة بن سعية يبشرني بإسلام ريحانة ». فقال: يا رسول الله، قد أسلمت ريحانة، فسره ذلك. دلائل النبوة للبيهقي، ٤/ ٧٤.

قائلاً: (اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخرجوه، اللهم فإن بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك) [1]، وقد استجيب دعاؤه فتحجر جرحه، وتماثل للشفاء[2] حتى كانت غزوة بني قريظة، وكان سعد قد دعا أيضًا: (ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[3]، وجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحكم فيهم إليه، فحكم فيهم بالحق ولم تأخذه في الله لومة لائم[4].

وعندما نفذ حكم الله في يهود بني قريظة رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول: اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم (يعني قريشًا والمشركين)، فإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها[5]، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات رَحِمَهُ اللَّهُ[6].

ثم إن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قبض سعد بن معاذ في جوف الليل [7] معتجرا [8] بعمامة من استبرق فقال: «**يا محمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش؟**» قال فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سريعا يجر ثوبه إلى سعد فوجده قد مات[9].

ثم إن قومه احتملوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني عبدالأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة، فقيل: انطلقوا فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخرجنا معه فأسرع المشي حتى تقطعت شسوع نعالنا وسقطت أرديتنا عن أعناقنا فشكا ذلك إليه أصحابه يا رسول أتعبتنا في المشي فقال: «**إني أخاف أن تسبقنا الملائكة إليه فتغسله كما غسلت حنظلة**» فانتهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى

---

(١) البخاري - الفتح ٧ (٣٩٠١).
(٢) فقه السيرة للبوطي، ص٢٢٨.
(٣) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (٣/ ١٣٨٩) رقم ١٧٦٩.
(٤) البداية والنهاية ٤/ ١٠٨، ابن القيم، زاد المعاد ٣/ ١١٧، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢/ ٥٤، وابن هشام ٢/ ٢٤٠.
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٧٥).
(٦) صحيح البخاري ٥/ ٥١، فتح الباري ٧/ ٤١١ - ٤١٥.
(٧) الجوف: وسط الليل.
(٨) الاعتجار بالعمامة هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئا تحت ذقنه.
(٩) دلائل النبوة للبيهقي، ٤ / ٢٩.

البيت وهو يغسل وأمه تبكيه وهي تقول:

ويـــــل أم ســـــعد ســـــعداً ::: حـــــــــزامة وجـــــــــداً

فقال: كل نائحة تكذب إلا أم سعد، ثم خرج به قال: يقوم له القوم: ماحملنا يارسول الله، ميتاً أخف علينا منه. قال: ومايمنعه أن يخف، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم[1].

وقد جاء في النسائي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عدد الملائكة الذين شاركوا في تشييع جنازة سعد فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذا العبد الصالح الذي تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضمَّة ثم أفرج عنه**»[2]. يعني سعداً.

وهاهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يودع سعداً كما روي عبدالله بن شداد: دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يكيد نفسه فقال: جزاك الله خيراً من سيد قوم. فقد أنجزت ماوعدته، ولينجزك الله ماوعدك[3].

لقد كان سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السابقين الأولين لاعتناق هذا الدين الحنيف بل إنه بإسلامه أسلم قومه بني عبد الأشهل وقد أسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على يد أول سفير أرسله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة كان ذلك على يد مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه -. وقد شهد سعد رضي الله تعالى عنه بدراً وكان له الموقف المشجع والشهير والذي حمده عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. حيث قال للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد كلام جميل... فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقي بنا عدونا غداً أنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله. قال فسر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقول سعد ونشطه[4].

وقال ابن الأثير: "ومقاماته في الإسلام مشهورة وكبيرة ولو لم يكن له إلا يوم بدر لكفى"[5].

---

(١) الطبقات الكبرى، ٣/ ٤٢٨، سير أعلام النبلاء، ١/ ٢٨٧.

(٢) سير أعلام النبلاء، ١/ ٢٩٥، إسناده صحيح، أخرجه النسائي، ٤/ ١٠٠، في الجنائز.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٤٢٩، وابن أبي شيبة، المصنف، ٤/ ٢١٦.

(٤) البداية والنهاية، ٣/ ٢٦٢.

(٥) أسد الغابة، ٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩.

وجاءت غزوة الخندق حيث أراد الله له الحسنى فضرب أروع الأمثلة.

وحتى بعد أن رمي في أكحله استمر مجاهداً في سبيل الله حتى حقق الله ما طلب وشفى قلبه من اليهود الذين خذلوا دين الله وخذلوا رسوله في وقت عصيب ولكن الله سبحانه وتعالى رد كيدهم في نحورهم، وحكم فيهم سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخذوا وقتلوا تقتيلاً على مرأى ومسمع من المسلمين وذلك انتقام من الله جزاء بعض ما فعلوه.

إن هذا الصحابي الجليل قد استشهد وهو في ريعان شبابه، فقد كان في السابعة والثلاثين من عمره، يوم وافته منيته، وهذا يعني أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو في الثلاثين من عمره... فقد كانت هذه السيادة في العشرينات من عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، وإنما تتفجر الطاقات الكامنة والمواهب بعد سن الأربعين، التي هي غاية الأشد قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] فأي طراز هذا الذي حفل تاريخه بهذه المآثر، واستبشر أهل السماوات بقدومه واهتز عرش الرحمن فرحا لوفاته، من دون خلق الله أجمعين.

* * * * *